عائشة سعيد أبو الجدائل

واقع الأديرة الشرقية فى الإمبراطورية البيزنطية

لم تحظ الأديرة الشرقية بإلقاء الضوء عليها من خلال الدراسات والبحوث الرصينة مثلما حظيت به الأديرة فى الغرب. وربما يعود السبب فى ذلك إلى غياب دور الأديرة الشرقية نفسها كمساهم فعال فى الحياة العامة مثلما كان دور الأديرة الغربية التي ساهمت مساهمة فعالة فى الحياة الاجتماعية والفكرية فى المجتمع الغربى الأوروبى إذ كانت أديرة الغرب بمثابة الكواكب التي شع فيها ضوء المعرفة والعلم وقد قدر للدراسات والثقافة الإنسانية البقاء على يد الرهبان فى الغرب وعلى رأسهم كاسيودورس الذى حول الدير إلى مركز لتثقيف الرهبان فى العلوم الدينية والدنيون ثم أكمل دوره العلمى الأديرة الأيرلندية التى قامت فى غاله الفرنجية وألمانيا والتى خصصت لكل دير من الأديرة التابعة لها مدرستين منفصلتين إحداهما لأهل الدير من الرهبان والأخرى للجماعة من خارجه.

إن الباحث فى الأديرة الشرقية يصادفه الكثير من القصور فى المعلومات المتاحة. ولكن من خلال نطاق الجهود الجادة فى البحث والتقصى ومن خلال دراسة عميقة وهادفة وجدت الباحثة النقاط التالية تفرض نفسها على بساط البحث والنقاش:

١ – تحديد مصطلح الرهبانية بصفة عامة والشرقية بصفة خاصة.

٢ – تحديد هوية الرهبان الشرقيين وتفسير المصطلح من الناحية الروحية والمادية أو العملية.

٣ – تفسير مصطلح الدير وهو المكان الذي سكنه الرهبان ومارسوا فيه الطقوس الرهبانية.

ومن هذا المنطلق وجدت الباحثة أن المصطلحات الثلاثة تندمج لتعطى معنى واحداً يعبر به عن المكان والممارسة والممارسين. لذا ورد فى البحث مصطلح دور الراهب مرة أو دور الأديرة مرة أخرى وهو كناية عن دور واحد.

٤ – التقييم التاريخى والحضارى للدور الذى لعبته الأديرة من الناحية الاجتماعية والعملية.

الرهبانية أو الرهبنة: Monasticism

وهي مشتقة أصلاً من الكلمة اليونانية مونا سيتريون Monastrion والمشتقة بدورها من الكلمة موناستن Monasten وهى تعنى يعيش بمفرده أو يحيا حياة وحيداً(١).

والرهبانية معناها الزهد والتنسك والانعزال عن الدنيا والانفراد بقصد التبتل والعبادة مع اختيار الفقر طوعاً(٢) بمعنى: أنها عيشة انعزالية في خلوة كاملة بعيدة عن المدن والأماكن العامرة بالناس(٣) وفي نظر رجال الدين المسيحيين: هى ممارسة للحياة المسيحية التي يجب أن يعيشها المؤمن(٤) وهى حركة شعبية انطلق إليها البعض لممارسة حياة مسيحية على مستوى ملائكى لتكريس كل الوقت للعبادة وهي ممارسة حرمان الجسد من ملذاته وممارسة للروح لانطلاقها نحو السماويات(٥) وقد مثلت جزءاً من النسيج الدينى والاجتماعى في الإمبراطورية الرومانية الشرقية " البيزنطية " وأثرت في حياة كل البيزنطيين ولعبت دوراً روحياً واقتصادياً وثقافياً وحب خير للبشرية Philanthropic (٦).

---

(١) الأب متى المسكين: الرهبنة القبطية فى عصر القديس أنبا مقار. ط ٣ ، مطبعة القديس أنبا مقار. القاهرة ١٩٩٥، ص ٤٨. أيضا:

- Encyclopedia Britannica, Vol. 12. P. 335.

(٢) القمص يوسف أسعد: الرهبنة. ط٢ ، مكتبة كنيسة السيدة العذراء ، بالعمرانية ، القاهرة ١٩٨٠. ص ٣.

ـ أيضا: رؤوف حبيب: الرهبنة الديرية فى مصر. مكتبة المحبة ، القاهرة ١٩٧٨م ، ص ٢٣.

ـ آباء الكنيسة القبطية: بستان الرهبان. ط٧ ، دار الجيل للطباعة ، القاهرة ١٩٦٨. ص٤.

(٣) القمص يوسف أسعد: الرهبنة ، ص٤.

(٤) قاموس آباء الكنيسة وقديسيها: كنيسة الشهيد مار جرجس ، الإسكندرية ١٩٨٦م ، ج ١ ، ص٩.

(٥) قاموس آباء الكنيسة: ج ١ ، ص ٩.

(6) The Oxford Dictionary of Byzantium, Oxford University Press. New York, Oxford. (1991), Vol. 1. P. 1392.

أيضا:

- Constantelos, Byzantine Philanthropy and Social Welfare New Branswick, (1968) XXVIII, 356. P. 82.

ويشير رؤوف حبيب إلى أن الرهبانية المسيحية لم تكن شيئاً مستحدثاً في الديانة المسيحية ولكن هناك حركات أخرى مماثلة وضرب مثلاً على ذلك بقوله: التنسك عبارة عن نزعة فلسفية قامت بين عدد من طوائف وجماعات مختلفة من شعوب وممالك الشرق منذ قرون قبل ظهور المسيحية[١] ولم تكن المسيحية هي الديانة الأولى التي تسلك فيها جماعة مثل هذا المسلك التنسكى فقد كان هناك طوائف وجماعات سارت على نهج التنسك وهم:

١ – طائفة البراهمة فى بلاد الهند الذين لهم تاريخ في الزهد والتقشف الصارم والحياة الانفرادية وإذلال الجسد وكبح نزواته بطرق فى منتهى القسوة وكانوا يؤلفون جماعات عاش بعضهم في الكهوف والبعض بين الأدغال والغابات ... الخ ، وكانوا يمارسون نوعاً من أنواع الرياضة البدنية القاسية لتعذيب الجسد بشتى الوسائل مع الصوم والحرمان[٢]. وتمكن جماعة الهنود البراهمة من نشر دينهم فى أنحاء الهند والصين واليابان واعتقدوا أن العالم لا يستقر أو يهدأ له بال إلا باعتناق مبادئهم فكونوا هيئات تبشيرية سافرت إلى مختلف أنحاء العالم ، وقد أرسل إمبراطور الهند بعثات إلى مصر لنشر تعاليم بوذا فى أقطار البحر الأبيض وذلك عام ٢٥٩ ق.م ولكنها لم تلق نجاحاً فى المنطقة[٣]. كما كان هناك فئة من المتوحدين المصريين تسمى: Egyptian Gymonosphists والذين كانوا يزاولون حياة نسكيه خاصة ويذكر أن هذا النوع من حياة النسك يعود إلى جذور هندية[٤].

٢ – طائفة الاسينس Essenes إسينونين وهى طائفة نشأت منذ القرن الثانى ق.م. والتى عاشت حول شواطئ البحر الميت وكان أفرادها يحرمون على أنفسهم الزواج ويحيون حياة اشتراكية بسيطة ويكدون للحصول على القوت ويتصدقون بما لديهم على أبناء الفقراء ويقدمون الإحسان بسخاء للمعوزين.

---

(١) رؤوف حبيب: الرهبنة الديرية فى مصر ، ص ٢٣.

(٢) رؤوف حبيب: الرهبنة الديرية فى مصر ، ص ٢٣.

(٣) رؤوف حبيب: الرهبنة الديرية فى مصر ، ص ٢٤.

(٤) رؤوف حبيب: الرهبنة الديرية فى مصر ، ص ٢٥.

٣ – جماعة اليهود التربيوتاى Therapeutai الذين كانوا يعيشون في مصر حول بحيرة مريوط والذين كانوا يعتمدون على أنظمة تعسفية لتنقية الروح من الشوائب والنزوات ، كما أنهم عاشوا عيشة منعزلة خارج المدن بعيداً عن مباهج الحياة(١).

٤ – طائفة المنقطعين والذين عرفوا باسم كوتويكاى Kotoikoi وكانت تشمل طائفة من الفقراء عرفت باسم المتصوفين والمعتزلين والتى كرست حياتها لخدمة الإله سرابيس منذ العصر البطلمى.(٢)

٥ – ديانة مصر القديمة التي اهتدى أصحابها إلى التفكير في الآخرة لذا بنوا بيوتاً من اللبن والخشب بينما اتخذوا قبوراً أشد صلابة لتتحمل تقلبات الزمن وقسوة الطبيعة وشيدوا الأهرامات بالأحجار الضخمة وحنطوا الأجساد بعد الموت لحفظها .. وهذا يؤخذ منه التجرد من الماديات والاهتمام بالروحانيات والميول التنسكية.(٣)

وهذه النقطة بالذات لا يمكن أخذها للدلالة على التنسك والزهد لأن الكنوز الذهبية التي حفظت فى مقابر قدماء المصريين تدل دلالة قاطعة لا لبس فيها على أنهم أحبوا البذخ والترف وتمسكوا بالزينة على شكل المشغولات الذهبية وكل مظاهر البذخ ... وان إيمانهم بالبعث بعد الموت لا يعنى تنسكهم فلو كانوا نساكاً لما دفنوا معهم الذهب والفضة.(٤)

٦ – جماعة الفلسفة الأفلاطونية الحديثة والتي وصفت بأنها كانت نظاماً دينياً وقيل عنها: أنها حولت الهلينية إلى لاهوت.

أما أهم مبادئ الفلسفة الأفلاطونية الحديثة:

أ – الدعوة إلى التحرر من عبودية الجسد بالحياة التنسكية التقشفية.

ب – مراعاة الجانب التأملى فى الحياة.

---

(١) رؤوف حبيب: الرهبنة الديرية فى مصر ، ص ١٣-٢٦.

(٢) رؤوف حبيب: الرهبنة الديرية فى مصر ، ص ٢٦.

(٣) رؤوف حبيب: الرهبنة الديرية فى مصر ، ص ٢٧.

(٤) رؤوف حبيب: الرهبنة الديرية فى مصر ، ص ٣١.

ج – لن تتحرر الروح من الملذات المادية إلا عن طريق التقشف وإذلال الجسد والاعتزال عن العالم والزهد فيه.

هذا وتتفق الموسوعة البريطانية مع رؤوف حبيب بأن الرهبنة المسيحية متأثرة بالعقيدة الهندوسية القديمة[١].

ونحن نوافق رؤوف حبيب بأن هناك بعض المعتقدات المشابهة للرهبانية المسيحية والتى كانت تدعوا إلى الزهد والتقشف والتنسك وإن الزهد والتقشف الذي نادت به الرهبانية المسيحية لم يكن شيئاً مستحدثاً بالنسبة للمجتمعات الإنسانية بصفة عامة ومجتمعات حوض البحر الأبيض المتوسط الشرقي بصفة خاصة ولكنها ليست امتداداً لها.

إن الرهبانية المسيحية شيء تختص به الديانة المسيحية لأنها تختلف عن الحركات السابقة في الهدف والفلسفة وربما الأسلوب ، وقد ورد ذلك فى القرآن الكريم فى قوله تعالى: " ورهبانية ابتدعوها "[٢] وكلمة بدع فى اللغة بمعنى اخترع الشئ: تقول بدع الشيء اخترعه وصنعه لأعلى. مثال: وتقول: كان بدعا أو لا مثيل له وبناء على ذلك فإن الرهبانية بدعة مسيحية. ويجب ملاحظة أن الديانة المسيحية هي ديانة سماوية وان الأمور التي عرض لها رؤوف حبيب بدءاً من المعتقدات الهندية البوذية وانتهاء بالفلسفة الأفلاطونية أمور ومعتقدات ليس لها علاقة بعبادة الله سبحانه وتعالى والقرآن ينفى نفياً قاطعاً ما حاول أن يثبته رؤوف حبيب.

أما السبب وراء ابتداع الرهبنة فى الدين المسيحي فيرجعها جونز Jones إلى أن قانون الأخلاق المسيحى كان صعبا جداً حيث توجد قائمة من المحرمات مثل تحريم الزنا واللواط وتحريم الطلاق وتحريم اتخاذ عشيقة أو محظية والأمر من ذلك تحريم حضور حفلات المسرح وعروض المصارعة وسباق الخيل وحتى ارتياد الحمامات العامة أعتبر من الأمور

---

(1) Encyclopedia Britanica, Vol. 12. P. 335.

ـ أيضاً: عبد الحفيظ محمد على: الحركة الديرية فى مصر وأثرها على بلدان البحر المتوسط فى مصر وعالم البحر المتوسط. دار الفكر للدراسات والنشر ، ص ١٠٧ وما يليها.

(٢) القرآن الكريم: سورة الحديد ، آيه ٢٦.

المثيرة للغرائز ، ومن المعروف أن القتل محرم ، ولكن المتشددين ذهبوا إلى أن الجندى الذى يقتل عدواً فى معركة حربية يعتبر قاتلاً وكان من الصعب أن يعيش الإنسان العادى في تلك الظروف وأنه من المستحيل على الرجل أن يحافظ على أخلاقه الفاضلة وهو يعيش فى المدينة وأن الانسحاب والمعيشة في الجبال مهم جداً بل ضرورى وحيوى وأن الرجل ، رب الأسرة ، الذى لديه زوجة ويقوم بتربية أبنائه وعبيده لا يمكن أن يكون فاضلاً فى هذا الجو! هذا بالإضافة إلى تأخير سن التعميد إلى ما قبل الوفاة حتى لا يرتكب الإنسان أخطاء أو فواحش وكان ردة الفعل العملية لكل هذه الصعوبات هي حركة الرهبنة التنسكية Eremitic وذهب بعض الناس إلى الصحراء للبحث عن الاتحاد القوى مع الله الشيء الذى لا يستطيع فعله الإنسان الدنيوى إلا من خلال إماتة النفس وقمع الشهوات ومن خلال الصلاة والتفكير والتأمل. وإن أولئك الأشخاص الذين بوسعهم القيام بمثل هذه الأعمال نادر وجودهم(١).

وتقول هسى عن الرهبانية: إنها كانت طريقة من الحياة التطوعية احتضنها جماعة آثروا أن يتبعوا فرائض الإنجيل وأن يكبحوا شهواتهم وغرائزهم حتى يصبحوا متفرغين لمعرفة الله فى هذا العالم وليصبح رفيقاً لهم في الحياة الأبدية ولعل أبرز ملامح الرهبنة انسحاب الإنسان من الحياة العادية في المحيط الأسرى وإعلان الحرب ضد الشياطين الذين يحاولون غواية المسيحى الذى قطع على نفسه أن يسلك هذا الدرب(٢).

إن إخلاص العبادة والنبل هو الهدف الأساسى من الرهبانية وذلك ابتغاء رضوان الله والذين قاموا بهذا العمل من الأشخاص النادرين. أما سبب الهجمة على الدخول في الرهبنة التى حدثت فى القرن الرابع الميلادى فيعود إلى سياسة الاضطهاد التي اتبعها الإمبراطور دقلديانوس (٢٨٤-٣٠٥م) لقد هرب فى مصر وحدها عدد كبير من المسيحيين الذين بحثوا عن سلامة أرواحهم فى الصحراء وسكنوا المغارات والكهوف وغيرها من المناطق الجبلية(٣). والدليل الغائب عن أذهان المؤرخين هم أصحاب الكهف الذين ورد ذكرهم في القرآن الكريم فى سورة

---

(1) Jones, The Decline of the Ancient World. London. (1968) P. 331.

(2) Hussey, The Byzantine World. London. (1950) P. 114.

(٣) نور الدين حاطوم: تاريخ العصور الوسطى فى أوروبا. دار الفكر الحديث ، لبنان ١٩٦٧م ، ص ٧١-٧٢.

عن أذهان المؤرخين هم أصحاب الكهف الذين ورد ذكرهم في القرآن الكريم فى سورة الكهف فى قوله تعالى:

(أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا {٩} إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا {١٠} فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا {١١} ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا {١٢} نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى {١٣} وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَهًا لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا {١٤} هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا {١٥} وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحمتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا {١٦})[1]

وتصور لنا الآيات من ١١-١٨ حالهم وهم رقود فى الكهف ثم بعثهم:

وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا {١٨} إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا {١٩})[2].

ففى الآيات إشارة واضحة إلى اعتزال الناس في الكهف هرباً بدينهم ثم فى آخر الآيات الإشارة الصريحة إلى أنهم هربوا من الاضطهاد " أن يظهروا عليكم يرجموكم أو يعيدوكم فى ملتهم " لأنه لم يكن لديهم خيار أما التعذيب والاضطهاد وترك الدين وإما اعتزال الناس والهروب بالدين خوفاً من التعذيب والقهر الذى عبرو عنه بكلمة (يرجموكم) ، وهذا دليل آخر قاطع من القرآن الكريم على سبب ظهور الرهبانية والانسحاب من الحياة العامة إلى الانعزالية فى الجبال والكهوف وهو الاضطهاد. لقد مثل الاضطهاد الدينى الذى عانى منه المسيحيون

---

(١) القرآن الكريم: سورة الكهف ، الآيات ٨-١٦.

(٢) القرآن الكريم: سورة الكهف ، الآيات ١٨-٢٠.

الأول ظاهرة عامة على أيدى الأباطرة الرومان الوثنيين الذين دأبوا على اضطـــهاد المســيحيين منذ عام ٦٤م فى عهد الإمبراطور نيرون Nero وحتى عصر الإمبراطور دقلديـــانوس الـــذى وصل الاضطهاد الدينى فى عهده مبلغاً حتى وصف بأنه عصر الشهداء.

وبإحصاء مراحل الاضطهاد الدينى المسيحي فكانت كالتالى:

١ - فى عهد الإمبراطور نيرون ٦٤م.
٢ - فى عهد الإمبراطور تراجان ١١٧م.
٣ - فى عهد الإمبراطور سبتموس سفيروس ١٩٣-٢١١م.
٤ - فى عهد الإمبراطور مكسيموس ٢٣٥-٢٣٨م.
٥ - فى عهد الإمبراطور داكيوس ٢٤٩ - ٢٥١م
٦ - فى عهد الإمبراطور فالريان ٢٥٣ - ٢٦٠ م
٧ - فى عهد الإمبراطور اورليان ٢٧٠-٢٧٥ م.
٨ - فى عهد الإمبراطور دقلديانوس ٢٨٤ - ٣٠٥م.
٩ - فى عهد الإمبراطور مكسيميانوس ٣٠٥-٣١٢م.[١]

لقد دأب الأباطرة كما أشرنا منذ عام ٦٤ وحتى عام ٣١٣م. على اضطهاد المسيحيـــين وقد قام كثير من المسيحيين بتبنى فكرة اعتزال المجتمع و اللجـــوء إلـــى القفـــارى والـــبرارى والكهوف هرباً بدينهم من الاضطهاد وهذا رد فعل طبيعى فكيف يطيب لـــهم العيـــش والخدمـــة المدنية والعسكرية لمليك أو وطن هو مضطهد فيه ومسحوق ولا يملك أبسط حقوق الإنسانية فكان الهروب من الحياة العسكرية ومن الحياة العامة. وهذا الهروب ما هو إلا مظـــهر مـــن مظـــاهر الاحتجاج الصامت ضد قسوة وقمع المجتمع.

ويرى أحد رجال الدين المسيحيين أن الباعث على الرهبنة هـــو الشـــعور الـــذي يتملـــك المرء مما فى الحياة من فساد فيذهب إلى رد فعل سلبى يدفعه إلى الانطواء والابتعـــاد ويظـــهر

---

(١) قاموس آباء الكنيسة: ج ١ ، ص ٢٣.

النفس بالنبل والعبادة والصلاة[١]. هذا بصفة عامة أما الدليل على الهروب من الاضطهادات التي حدثت فى عهد كل من الأباطرة داكيوس (٢٤٩ -٢٥١م) وحياة الإمبراطور فاليريان (٢٥٣ -٢٦٠) فهى قضية القديس بولا[٢].

ومؤلفى بستان الرهبان لأباء الكنيسة القبطية يؤكدون ذلك بقولهم: لقد جاء عصر الرهبنة فى الكنيسة القبطية تالياً لعصر التبشير والاستشهاد وذلك بالصمود أمام الوثنية المضطهدة للمسيحية وقد حاولت الوثنية وأد المسيحية ولكن انتشار المسيحية غلبها. ثم انتهى عصر المستشهدين وجاء عصر العابدين فنشأت الرهبنة وهي التحول من التنافس مع العالم إلى الاستمتاع بالنظر والتحدث إلى إله. فما كانت الرهبنة هروباً بل حباً وما كانت حياة سلبية بل إيجابية. وقالوا: إن مبادئ الرهبنة هى: الفقر والطاعة والعفة وأنكروا أن تكون الرهبنة مذهباً صوفياً[٣].

ويرى كارنيز Charanis أن الأسباب التى جعلت البيزنطيين يحتضنون الرهبنة عديدة ومختلفة من شخص لآخر. فالفلاحون اتجهوا إليها لأنهم كانوا يجدون فيها حظاً أوفر. وبعضهم مرت بهم ظروف صعبة وبعضهم خابت آمالهم في الحياة وبعضهم ترك الجيش لأنه شاهد عددا من زملاءه يقتل في ساحات القتال ، وهذه الأسباب وغيرها من الأسباب الكثيرة التي أوردها كارانيز إنما هى أسباب تأتى بعد انتشار فكرة الرهبانية في الديانة المسيحية وهى تشمل مختلف الأسباب الدنيوية التى ابتعد بها عن الدوافع الدينية ويضيف Charanis إذا كان هناك جماعة قد تبنت الرهبانية بملء إرادتها فإن البعض وخصوصاً من أصحاب الرتب الاجتماعية العالية قد أجبروا على تبنى حياة الرهبنة والأغلبية التى أجبرت على ذلك أجبرت لأسباب سياسية بحتة ومن أولئك الأشخاص الذين قاموا بمحاولات انقلابية فاشلة أو الذين يشك فى أنهم يدبرون المؤامرات السياسية أو أولئك الذين هم مرشحون لاعتلاء العرش الإمبراطورى والقائمة من أمثلة أولئك طويلة تحتوى على حوالي أثنى عشر إمبراطوراً وعدد من الأميرات. والأميرات أجبرن

---

(١) متى المسكين: الرهبنة القبطية ، ص ٤٨.

(٢) متى المسكين: الرهبنة القبطية ، ص ٤٩.

(٣) بستان الرهبان: ص ٢.

على الدخول إلي الأديرة لأسباب ملكية سياسية فإذا سمح لأولئك الأميرات بالزواج فإنهم سيتزوجن من أشخاص يعتبرون من الخطورة بمكان على العرش والمطالبة به. ويذكر أن ثلاثة فقط من الأباطرة الذين دخلوا فى الرهبانية دخلوها بملأ إرادتهم وهم ميكائيل الرابع Michael IV واسحق الأول كومنين Isaaci Comnenw (١٠٥٧-١٠٥٩) ، ويوحنا كونتا كوزيزنز John VI Contacuzenus[١]. والأسباب والدوافع غير الدينية هى التى جعلت بعض الكتاب يقولون: أن الرهبانية قامت فى أساسها على شعور من الأنانية المستترة وراء التدين فكل راهب يفكر فى إنقاذ نفسه دون غيره لأن إنتشار الرهبانية بدأ مع الأزمة السياسية والاقتصادية والاجتماعية التى عانت منها الإمبراطورية الرومانية منذ القرن الثالث الميلادى. وهناك كاتب آخر[٢] يرى ، أن الكثير من الأسباب الدنيوية فى اعتناق الرهبنة وهى أسباب رابحة لمن يعتنقها حيث يرى أن الأديرة[٣] كانت مملوءة بجمهور من الدهماء المغمورين الحقراء الذين كانوا يربحون فى أديرتهم أكثر بكثير مما ضحوا به في دنياهم فالفلاحون والعبيد والصناع كانوا يهربون من الفاقة والازدراء. أما الشباب الجبناء فقد كانوا يفضلون حياة الرهبنة على أخطار الحياة العسكرية ... وكذلك سكان الولايات من كل مرتبة والذين تملكهم الذعر عمدوا إلىٰ الفرار وكان هؤلاء يجدون فى الأديرة مأوى وغذاء[٤].

انقسمت الرهبنة إلى قسمين الفردية وتسمى أيضاً التوحد وتعنى إنساناً بعد عن الناس وتخلف عن الحياة مع الناس ويسمى روادها المتوحدون وأصلها كلمة يونانية أنا أناخورس anaxriz وقد بدأت هذه الحركة بالانعزال ولكن في مكان قريب من الناس ومدنهم فى

---

(1) Peter Charanis; The Monkas an Element in the Byzantine society Dumbartion Oaks Papers 25 (1971) P. 77.

(2) R. H. C. Davis., A history of Medieval Europe, Hong Kong, (1981) P. 75.

(٣) الأديرة البيوت يتعبد بها الرهبان وتكون في الصحارى وعلى رؤوس الجبال بعيداً عن المدن ومفرده دير وديرر النصارى أجبله الدار. والديرانى صاحب الدير. والدير من الدار ولعله يقصد به الموضع الذى يسكنه الرهبان لمزيد من التفاصيل ، انظر:

ـ ياقوت الحموى: معجم البلدان. دار إحياء التراث العربى ، لبنان ، بدون تاريخ ، ج ٢ ، ص ٤٩٥.

(٤) إدوارد جيبون: اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها. ترجمة: لويس إسكندر: ج ٢ ، ص ٣٢٩-٣٦٠.

أكواخ أو مغارات ثم انتهت بالانعزال الكامل فى جوف الصحراء أو شـــقوق الجبـــال وتمـــيزت بالنسك الصارم[١]. القسم الثانى من الرهبانية هي الرهبنة المشتركة ويسمى أصحابها الكنوبيـــون Koinobion وهى مكونه من مقطعين koins وتعنى مشترك و Boin المستعصم Biov وتعنـــى حياة[٢] وكنوبيون تعنى حياة مشتركة. وترادف فى المعنى كلمة موناستيريون وتعنـــــى مؤسســـة أو مكان قلاية كثيرة اصحابها متحدون فى نظام الحياة.

الرهبان: The Monks

الرهبان مفرده راهب وهو الشخص الذي يعتزل المجتمع ويعيش منفرداً متوحداً وأطلقـــت عليه كلمة أناخورتيس Anaxrits وتعنى إنسان اعتزل الحياة[٣]. وخلف الرهبانية البيزنطية يوجد شخص راهب متنسك باع كل ما يملك وقدم ثمنه للفقراء حمل صليبه وتبع المسيح فـــى نمطـــه العملى وفى مفـــهومه وهذا المثل الأعلى واضح بشكل جلى فى الأناجيل الأربعـــة ومثـــل هـــذا الناسك قهر الطبيعة فى نفسه وبداخله وتحكم في غرائزه الحيوانية التى أصبحـــت لا تحركـــه أو حتى تؤثر عليه. وكما يبدو فإنه قد كسب قيادة قوى الطبيعة وكان يعتقد أنه بإمكانـــــه أن يشـــفى المرضى وأن يسقط المطر أو يحبسه وأنه يستطيع طرد الأرواح الشريرة ويطـــــرد الإغـــراءات ويعالج من الخطيئة. وان كل الأمور التي يقوم بعملها ، لا يقوم بها من خلال قـــواه الطبيـــــعية ولكن من خلال قوة الله ، تلك القوة التى تصل إليه خلال قناة وإن هذه الأمور أرسلت إليه كهبـــة من الله وإنها تسمى God's Charismata وإنه صوت الله ضد الهرطقـــــة " الكفـــر: والفســـاد والظلم وانه اعترف به وريثاً للأنبياء والقانون القديم ".[٤]

---

(١) الأب متى المسكين: الرهبنة القبطية ، ص ٤٨.

(٢) الأب متى المسكين: الرهبنة القبطية ، ص ٤٨.

(3) The Christian Background in C. M. H. Vol IV. P. 57.

(4) The Christian Background. P. 57.

وهذا الاعتقاد السائد فى الراهب أو الرهبان من السمات التى صبغت الديانة المسيحية والتي منحت الراهب مكانة قدسية عالية وهناك سلسلة من القديسين الذين ينسب إليهم صناعة المعجزات[١].

ووجد فى بيزنطة أنواع من الرهبان:

النوع الأول: Hermits وهم النساك ويطلق هذا المسمى على الرهبان والراهبات الذين انسحبوا من الحياة العامة ليعيشوا أو ليمارسوا حياة العزلة والصلاة والتقشف. وهم أوائل الرهبان المسيحيين وحركتهم عرفت بإسم Eremitism حركة التنسك وهذه الحركة صبغت الرهابنة البيزنطيين حتى القرن الخامس عشر الميلاد. والنساك المتأخرين فضلوا الحياة في الجبال المقدسة مثل جبال ميتور Meteor واوكينيتوس Auxention و Athos وآتوس وجانوس Ganos والمبوس Olympos [٢] وكان هناك نساء ناسكات حتى القرن الحادى عشر ولكن بعد ذلك التاريخ لم تتواجد الراهبات إلا في المجموعات التي تسمى كينوبية Cenobits " جماعة الشركة " وقد اعتبرت الحركة التنسكية eremitism أفضل وأعلى من الكينوبية Cenobitic (حياة الشركة) وذلك بسبب الصعوبة التي تكتنف حياة المعزلة المنفردة من جهة وتوفير الفرصة بالنسبة للتطور الروحانى Spiritual improvement من جهة أخرى[٣].

---

(١) لمعرفة المزيد من معجزات الرهبان انظر:

ـ بستان الرهبان: ص ٢٣-٢٤ القديس انطونيوس يسقى ملك الفرنجة ، ص ٤١.

ـ القديس مقاريوس صانع المعجزات ص ٨٨-٨٩.

ـ الأنبا سرابيون رجل المعجزات ... الخ.

(٢) استمدت تلك الجبال قداستها من الأشخاص الرهبان الذين اعتبروا مقدسين ولم تكن الأماكن مقدسة بحد ذاتها ولكن استمدت قدسيتها من بناء الأديرة عليها وسكن الرهبان فى تلك الأديرة.

(3) The Oxford Dictionary of Byz. Vol. 2 P. 1394.

النوع الثانى: هم Kelliotai أو Lavriotai الكليوتاى ولافروناى وهم الذين يعيشون فى خلايا منفصلة ولكنهم يجتمعون للعبادة[١].

النوع الثالث: هو الكنوبيون Cenobites وهم الذين عاشوا سوياً في مجموعات.

النوع الأخير: هم Diorthythmic وهؤلاء ظهروا فى القرن الخامس الميلادى وهم يمثلون حياة رهبانية شخصية individualized form of monastic life ولها وضع خاص Following one's own devices وهى تعنى أن كل شخص يتبع نمطه أو وسيلته أو شعاره وهذا النوع من الرهبان لم يكن منتشراً. وبصفة عامة فإن هذا النوع من الرهبان قد سخطت عليه الكنيسة الشرقية بسبب انحرافهم عن بقية الرهبان.

ولكن فى القرن الرابع عشر ظهر هذا النظام في بعض الأديرة في جبل آثوز كبديل للتنسك أو الكنوبية ، وهؤلاء الرهبان سمح لهم بأن تكون لديهم ممتلكات خاصة كذلك كان لهم دخلهم المالى الخاص وذلك عن طريق بيع ما صنعوا من أطعمة وملابس[٢]. أما النوع الأخير من الرهبان فهم أولئك الذين أطلق اسم الرهبان المتجولون wondering Monks [٣].

وقد بدأت الحركة التنسكية مع القديس بولا والذى كان أول المتوحدين. والقديس بولا أول شخصية روحانية فى تاريخ الرهبنة وكتب سيرته القديس جيروم سنة ٣٧٤م. وقد أمضى القديس بولا حياته كلها في الوحدة دون أن ينزل ولو مرة واحدة إلى العالم. ويذكر انه فى أيام اضطهاد الإمبراطور داكوس (٢٩٤-٢٥١م) وخلال الاضطهاد فى أيام الإمبراطور فاليريان (٢٥٣-٢٦٠م) كان بولا شابا فى السادسة عشر عمن عمره وكان متعلماً يجيد الكتابة بالخط القبطى والخط اليونانى. وكان غنياً فقد مات والداه وتركا له ثروة طمع فيها زوج أخته فخرج بولا هاربا من تلك الأجواء ، وربما يكون زوج أخته وثنيا وانه هدده بكشف اعتناقه للمسيحية

---

(1) The Oxford Dictionary of Byz. Vol. 2 P. 1395.

(2) The Oxford Dictionary of Byz. Vol. 2 P. 1395.

(3) The Oxford Dictionary of Byz. Vol. 2 P. 1395.

فهرب بنفسه وترك أمواله لزوج أخته وهرب إلى منطقة البحر الأحمر على سطح أحد الجبال. ويوجد دير فى ذلك المكان يدعى دير الأنبا بولا تخليداً لذكراه. واعتمد فى عزلته على شجر النخيل فى غذائه وصنع قلايه وربما مأوى له يقيه من حر الشمس وبرد الشتاء. وظل منقطعاً عن العالم حتى سنة ٣١٤م. حينما جاء إليه القديس انطونيوس ليتعلم منه سر حياته وتقواه ليذيعها على الناس. وقد أطلق على القديس بولا اسم أول السواح Wondering [١]. وقد توفى عن مائة وعشر سنة قضى منها ستة عشر عاماً بين الناس ثم أربع وثمانون عاماً فى توحد كامل[٢].

وإذا كان القديس بولا أول المتوحدين Hermits فان القديس أنطونيوس أول أب لجماعة الكينوبيون Konobion حيث أقام نظام معيشة الجماعة الديرية الاولى التي التفت حول القديس انطونيوس وكانت وسطا بين النظام التوحدى والنظام المشترك الكينوبي حيث كان من مبادئ القديس انطونيوس أن طالب الرهبنة ينبغي أن يعيش أولاً في جماعة الكنوبيين ثم يخرج إلى الوحدة الكاملة ، وقد كتب سيرة أنطونيوس العظيم أثناسيوس الاسكندرى Athanasios[٣] وبعد خمسة عشر عاماً قضاها بين الناس ذهب في عزلة تامة في مكان يدعى Pispir على ضفاف النيل فى منطقة مواجهة للفيوم ويطلق على المكان الآن اسم دير الميمون وذلك في سنة ٢٨٥م. وهناك قضى عشرين عاماً فى صلاة وتعبد.[٤]

إن جماعة القديس أنطونيوس كانوا من النساك الذين سكنوا بالقرب من الريف دون أن يكون لهم منهج معين[٥]. ويمتاز القديس باخوم Pachomios بأنه أب نظام الشركة حيث يعيش الرهبان معا داخل سور واحد يشتركون فى صلوات يومية ويشاركون فى الطعام وكلا يمارس

---

(١) السايح: هو الراهب المنطلق فى البرية ليعيش سنوات لا يرى وجه إنسان ويقتات على بلح من نخله أو بعض الأعشاب مع قليل من الماء.

(٢) الأب متى المسكين: الرهبنة القبطية ، ص ٤٥.

(٣) الأب متى المسكين: الرهبنة القبطية ، ص ٤٩.

(4) Butler Eastern Monasticism, in the C. M. H. Vol. 1. P. 521.

(5) The Oxford Dictionary, Vol. 2. P. 1394.

أيضاً: -- Jones, Decline . P. 333.

عملاً يناسب إمكانياته حسبما يشير به رئيس المجموعة وقد كتب باخـوم نظام وقواعد للجماعـة الرهـبانية المصـرية التى كانت فى عهـده نصف كنـوبية Semi Cenobific والتى أضـافت لتبتل (العزوبية) Celibacy والفقر والتنسك. هذا إلى جانب الطاعة كما أكد على تقاليد دينيـة منتظمة وعلى العمل اليدوى. وقد تكونت الشركة الباخومية فى العشرينات مـن القـرن الرابـع حيث عاش الرهبان فى جماعة تحت تعليمات صارمة ويقومون بأعمال يدوية تحـت إدارة أب روحى وقد أطلق على شركة باخوم اسـم Proper Monastic Life اسـم الحيـاة الرهبانيـة المثالية[١].

وقد كان النساك والرهبان والراهبات متبتلين وكانوا يعيشون في درجـات متفاوتـة مـن الخشونة وهناك عدد من القصص تروى عنهم وعن التفاصيل الجزئية لحياتـهم مثـل كميـات الخبز التى عاش عليها النساك المصريون أما في الغال فقد تأسف الرهبان لأن شـهيتهم للطعـام كانت أكبر ولم يستطيعوا منافستهم فى هذا المضمار ، كما أن عدداً كبيراً من النساك الشـرقيين دربوا أنفسهم على أن يأخذوا أقساطاً قصيرة من النوم لا تصدق. وفى سـوريا قـام النسـاك بتعذيب أنفسهم إذ كان يضعون على أجسادهم سلاسل ثقيلة. أما أشهر مـن عـذب نفسـه فـهو سيمون العامودى (٤٢٠-٤٥٩م.) symean Stylites الذى عاش لمـدة أربعيـن عامـاً علـى عامود بالقرب من إنطاكية وكان لديه سببه فى ذلك فهو يتحاشى جماعة الحجاج الذيـن قدمـوا للتبرك به والأخذ بنصائحه. وقد وجد له مقلدون عاشوا فى أجواء أشد قسوة وذلك حينمـا أقـام شخص على عامود بالقرب من القسطنطينية لمدة ثلاث وثلاثين عاماً (٤٦٠-٤٩٣م.) والذى كـاد أن يفقد حياته في عاصفة ثلجية وبعدها أصر عليه الإمبراطور ليو Leo أن يبنى لنفسـه كوخـاً على رأس العامود ليقيه من البرد[٢].

ولم يعش أى راهب بعد ذلك حسب مستوى المبـادئ والخشـونة التـى وضعـها رواد الحركة الأوائل ، أما قانون التبتل فلم يكونوا يحافظون عليه خصوصاً في الأديرة التى احتـوت

---

(1) Jones, Decline P. 333.

(2) Jones, Decline P. 333.

على الرهبان والراهبات لذلك أمر الإمبراطور جستنيان (٥٢٧ -٥٦٥م) بفصل الراهبات عن الرهبان.[١]

وامتدت حياة التنسك Eremitic إلى فلسطين حيث بنى هلاريون Hilarion مبنى أطلق عليه لورا Laura قرب غزه فى حوالى عام ٣٣٠م. ويبدو أنها امتدت إلى سوريا بشكل مستقل فى وقت أبكر من ذلك. وفى شرق آسيا الصغرى قدمها إيوستاتيوس السيباسى Eustathus of Sebas وباسيل القيصرى Basil of Caesrea فى منتصف القرن الرابع وقد فضلوا هنالك الحياة الرهبانية المشتركة الكنوبيون Ceonobitic ولكن ليس تحت نفس القاعدة الباخومية. وقد أسس شخص من الشرق يدعى اسحق أول دير فى العاصمة البيزنطية فى الثمانينات من القرن الرابع ولكن الحركة لم تنتشر فى تلك المنطقة حتى بداية القرن الخامس[٢].

ويقرر متى المسكين أن مصر هي مهد الرهبنة في العالم وعن مصر أخذت جميع الدول الرهبنة كنظام شعبي وكنسي فى آن واحد. ومن المؤكد أن خروج كل من بولا وانطونيوس وباخوم ومقاريوس وشنوده فى بدء حياتهم كان بصورة حره فرديه وبلا أى نموذج. وكذلك تأسيسهم لأديرتهم الأولى لم يكن قط مطابقاً لآى نموذج سابق. وكان كل أب من هؤلاء القديسين العظام له منهجه الروحى والنسكى الذى يكاد يخالف كل المناهج السابقة له[٣]. ويضيف أنه منذ بداية نشأة المسيحية نشأت معها حاسة نسكيه عالية بين الأقباط تغلبت فيها الأحاسيس الروحية على الأحاسيس الجسدية فمنذ القرن الأول ومنذ أيام لرسل اندفعت نماذج فردية وجماعية كثيرة لتقرير حياة نموذجية. وكان كثير من الأفراد رجالا ونساء قد مارسوا التنسك فى بيوتهم ووسط عائلاتهم ولكن الاحتكاك بالحياة اليومية جعلهم ينتظرون بفارغ الصبر ظهور المؤسسات الرهبانية الجماعية[٤].

---

(1) Jones, Decline P. 333.

(2) Jones, Decline P. 333.

(٣) الأب متى المسكين: الرهبنة القبطية ، ص ٤٤.

(٤) الأب متى المسكين: الرهبنة القبطية ، ص ١٣ ، ٤٤.

الأديرة ومفردها (دير): Monastery

مصطلح المكان: مساكن الرهبان والراهبات وهى كلمة يونانية الأصل Monastirion مونا ستيريون ومنها اشتقت كلمة دير Monastery ، فى اللغات الأوروبية والمصطلح هذا يستخدم بصفة أساسية للكينوبيه Konobion وهو مرادف لها فى المعنى وكذلك يستخدم للتعبير عن Laura و Idiorrhythmic .(١)

لقد بدأ مفهوم الأديرة مع الحركة التنسكية للقديس انطونيوس المصرى الذى اعتزل فى صحراء طيبه سنة ٢٧٠ ، وفى حوالي سنة ٣٠٥-٣٠٦ نظمت أول مجموعة من الرهبان مكونه جماعات حره Loose Community وفى هذه المجموعات الحرة سكن الرهبان فى خلايا منفصلين وكانوا يتقابلون مرة واحدة أسبوعياً وقد عرفوا باسم لوراى La urae.(٢) وكما سبق وأن أشرنا إلى أن القديس أنطونيوس كان وسطاً بين النظام التوحدى Eremetic والنظام الجماعي الكنوبيون Koinbion حيث كان من مبادئه أنه على طالب الرهبنة أن يعيش أولاً فى جماعة الكنوبيين ثم يخرج إلى الوحدة الكاملة (٣).

أما نظام الشركة فقد أسسه القديس باخوم ويعتبر أب نظام الشركة فى الأديرة حيث يعيش الرهبان معا داخل سور واحد يشتركون في صلوات يومية وأيضاً في الطعام وكل يمارس عملاً يناسب إمكانياته حسبما يشير عليه رئيس المجموعة. وقد كتب باخوم نظاماً وقواعد للجماعة الرهبانية المصرية التي كانت تمارس الرهبنة على نمط شبه كينوبيو Semi Kenobion والتى أضافت التبتل (العزوبية) Celibacy والفقر والتنسك ، هذا عكس مجموعة الرهبان التابعة للقديس أنطونيوس الذين لم يكن لهم منهج معين أو نظام خاص يتبعونه. ويقول الأب متى المسكين أن رهبنة القديس أنطونيوس كانت مصرية فى منهجها أكثر من

---

(1) The Oxford Dictionary, Vol. 2. P. 1392.

(2) Jones, Decline . P. 337.

- Butler, Easter ManasticismK P. 523.

ـ أيضاً:

(٣) الأب متى المسكين: الرهبنة ، ص ٤٩.

رهبنة باخوم لذلك ظلت حيه حتى اليوم تأخذ من البيئة المصرية وتعطيها دون أن تتآكل بعكس الرهبنة الباخومية التى لم تدم أكثر من قرن واحد[١].

أما تفصيل نظام الشركة فقد كان هناك أسوار تحيط بقلالى Killia يسكن كل قلايه راهب أو أكثر يعملون جميعاً تحت قيادة أب روحى واحد ينظم لهم الصلاة المشتركة ويعقد لهم اجتماعات روحية فيها عظات يلقيها أب روحى. وقد انتشر نظام باخوم في العالم كله من حيث أنه يتفق مع الطبيعة البشرية.

وبما أن الإمبراطورية مكونة من مجموعة من الشعوب لذلك نجد أن هناك عدداً من الأديرة المختلفة لمختلف الشعوب المكونة للإمبراطورية مثل الأديرة المصرية التي رأينا أنها كانت الرائدة فى هذا المجال وهى المؤسسة له وقد انتشرت الأديرة فى مصر على طول وادى النيل والصحراء المجاورة خلال مصر السفلى ومصر العليا وعلى الشواطئ قرب مدينة الإسكندرية[٢]. وقد انتقلت فكرة بناء الأديرة من مصر إلى مختلف أنحاء الإمبراطورية فامتدت من مصر إلى فلسطين حيث أسست لورا Laura قرب غزه فى حوالى ٣٣٠م. وإلى سوريا وكذلك آسيا الصغرى التي اشتهر فيها القديس باسيل القيصرى Basil of Caeserea فى منتصف القرن الرابع وهؤلاء فضلوا الرهبانية الكنوبية المشتركة Kenobion ولكن ليس تحت نفس القاعدة الباخومية. وظهرت الأديرة فى القسطنطينية فى الثمانينات من القرن الرابع ولكن

---

(١) الأب متى المسكين: الرهبنة ، ص ٣٤.

(٢) لمعرفة أماكن الأديرة الأنطونية والباخومية والفروق بينها انظر:

- Butler, Easter Manasticism P. 522.

ـ أيضاً: الأب متى المسكين: الرهبنة القبطية.

ـ انظر: الكتاب بالكامل ، حياة الشركة الباخومية: ترجمة: ميخائيل ، دير الانبا باخوميوس

ـ تعريف القلالى: الاسم اللاتينى Cellia وينطق سيليا.

ـ الاسم اليونانى وتنطق قلايا او كلايا.

ـ الاسم القبط. NIPI وتنطق يزى او (نيرس).

ـ الاسم العربى: المونا. ويعتقد من القلايا المنفردة التى يسكنها المتوحدون.

ـ الاب متى المسكين: الرهبنة القطبية ، ص ١٩٠.

الحركة الديرية فى هذه المنطقة لم تنشط حتى بداية القرن الخامس[١]. وتسربت الأديرة إلى المناطق التى تتحدث اللغة اليونانية من الشرق فى حوالى ٣٣٠ و ٣٤٠م. وأن أب الأديرة اليونانية هو القديس باسيل والذى انعزل في منطقة قرب نيوسيرزريا Neocaesarea فى منطقة بونتز Pontes وهناك وضع قواعد جديدة لحياة الرهبان ونظم الحياة الديرية. إن البنية التى وضعها باسيل للأديرة تعتبر كانوبية Kenobitic ومن هذا المنطلق فهو متقدما على القديس باخوم. إن النظام الباخومى جعل الرهبان يسكنون فى مساكن مختلفة ضمن الدير وكان الطعام يقدم فى ساعات مختلفة والجميع يتجمعون فقط في الكنيسة ، ولكن باسيل أسس سقفا واحدا ومائدة طعام واحدة وصلوات واحدة. وبناء عليه فإننا نقابل في الأديرة المسيحية سن القوانين (Legislation) المبنية على فكرة الشراكة Kenobion وحياة عامة. ومرة أخرى أعلن القديس باسيل أنه ضد الوقوف إلى جانب فكرة الحياة التنسكية وتفضيلها على حياة الشركة وقد وضع المبدأ الذى يقول: أن الراهب يجب أن يعمل عملاً صالحاً لبنى الإنسان. ومن أجل أن يجعل عمل الخير فى متناول الرهبان فقد أسس ديراً للأيتام مفصولة عن الأديرة ولكنها قريبة منها وتحت رعاية الرهبان بحيث يمكن استقبال الأيتام من الجنسين.[٢]

إن شكل أو نمط الأديرة الباسيلية هو الذى انتشر في مناطق آسيا الصغرى وأرمينيا وذلك حسب القوانين التى تمخض عنها مجمع خلقدونيا Council of chalcedon بإصدار عدد من المراسم المنظمة لحياة الأديرة. وقد أخذت طريقها وأصبحت معترفا بها خلال المنطقة اليونانية فى الإمبراطورية الرومانية كشكل رسمى للحياة الديرية ولكن الميل الشرقى تجاه ممارسة القسوة والصرامة Extreme austerity بشكل مبالغ فيه فإن حياة التنسك eremiticism قد شقت طريقها إلى المنطقة وأنه يوجد حتى يومنا هذا رهبان نساك على جبل آتوس وفى مراكز ديريه أخرى ومن القواعد التى وضعها القديس باسيل هو أن الدير يجب أن يكون مجتمع اكتفاء ذاتى عن طريق الرهبان ويمكن أخذ ديرستديو Stodios كنموذج للأديرة التى تعمل كمجموعة عاملة والذي ظهر في القرن التاسع[٣].

---

(1) Jones, Decline P. 333.
(2) Butler, Monasticism , P. 527.
(3) Butler, Monasticism , P. 529.

إن البيزنطيين أسسوا أديرتهم فى أعالى الجبال على أراضى يصعب الدخول إليها. وتستطيع القول بأنه مع فقدان المناطق الشرقية فى القرن السابع الميلادى فإن مناطق الجبال الواقعة على الساحل الغربي لآسيا الصغرى مثل جبال اوليمبوس Qlympus وأكيتويوس Auxentios ولاتروس Latros قد أصبحت مراكز عظيمة للأديرة وإن كل من جبل اوليمبس Olympus و لاتروس Latros عرفا بأنهما جبال مقدسة منذ فترة مبكرة[١].

وبدأت مراكز الأديرة العظيمة تظهر فى المنطقة الأوروبية فى النصف الثانى من القرن العاشر مثل دير آتوس Mt.Athos[٢]. وكذلك جبل جانوس Ganos الواقع على الساحل فى منطقة تراقيا Cithaeron, Thrace فى أتيكا Attica وأخيراً مع مطلع القرن الرابع عشر أسس دير ميتوراس Meteoras فى تساليا Thessaly حيث كان هناك مراكز ديرية هامة[٣].

كما أن الأديرة زحفت إلى المدن ويمكن القول بأن القسطنطينية كانت أكبر أو أعظم مركز ديرى وأول دير أسس بها هو دير Dalnetou فى الإمبراطورية وقد أحصى ر. جانين R. Janin ٣٢٥ ديراً فيها ، بما فى ذلك الأديرة النسائية (Nunneries) والتي كانت تقع فى عاصمة الإمبراطورية وضواحيها الأوروبية. كما أن عدد الأديرة التى تأسست في سالونيكا Thessalonica وضواحيها زاد على الأربعة والعشرون ديراً. كما اشتهرت عموريه بأنها مركز ديرى هام كذلك طرابيزون Trebizond كانت مركزاً آخر من المراكز الديرية الهامة خلال فترة حكم باليولوجوس Plaeolgus وتنضم إليهم ميسترا Mistra عاصمة منطقة موريا Morea التى أصبحت مركزا هاما للمنشآت الديرية[٤].

---

(1) Peter Charanis, the Monk. P. 65.

(٢) جبل آتوس لسان ضيق من الأرض يدخل في البحر الايجى شرق سالونيكا بطول ٣٥٥ ميلا وارتفاع ١٦٠٠ قدم عن سطح البحر تشتهر بأديرته التى يرقى عهدها الى القرنين الرابع والخامس ورهبان آتوس كلهم من الأرثوذكس وتابعين لقوانين القديس باسيلوس النسكية.

(3) Peter Charanis, the Monk. P. 64.

(4) Peter Charanis, the Monk. P. 65.

اشتهر جماعة من النساك فى منطقة نتريا Nitria [١] والذين جذبوا جماعات من شـــرق حوض البحر المتوسط ومن غيره من المناطق. وقد نشأ تبعاً لذلك ما عـــرف باســم أدب آبـــاء الصحراء والذى تضمن ذكرى أولئك الذين تلقوا التعليمات الروحية من الرهبان الأوائل والذيـــن سجلوا القصص التى وصلت إليهم عن طريق تلاميذهم وأتباعهم. ومن تلك المصادر حياة آبـــاء الصحراء كما رواها Palladius والذى أطلق عليه اسم تاريخ لوزيكا Lousic History [٢].

أما الأجيال اللاحقة من عالم الأديرة سواء كانت شرقية أم غربية التقاليد فإنـــهم اشـــتقوا منها روحانياتـــهم واتبعوا خطى الرهبان الأوائل فى العالم المسيحى ، إن المعـــاصرين أقـــاموا جميع أنماط المؤسسات الديرية بدأ من التنسك وانتهاء بالجماعات الكينوبيون وقـــد قـــام رجـــال الكنيسة فى القرن العاشر ، وبالذات الأساقفة bishops بمحاولة جذب الحركة الديريـــة ضمـــن إطار الأسقفيات. وفى هذا المجال فهم مدينون بجهود القديس باسيل St. Basil أسقف قيصريـــة ، الذى حاول أن يدخل بعض التنظيم فى الحياة الكينوبية. ولكنه لم يترك أى قاعدة أو نظام بالمعنى الدقيق للمصطلح ولكن نصائحه وتعليماته كانت تجد احتراماً وتقديراً من رؤساء الأديرة بما فـــى ذلك القديس بندكت مؤسس الديرية فى إيطاليا والقديس تيـــودور الاســـتوديو Theodore the Studite إن بعض مقاييس الانضباط كان موجوداً في نظام اللافرا Lavra وهو نوع أو شـــكل من أشكال الأديرة التي غرست جذورها فى فلسطين وسوريا[٣].

وبعد سقوط الأجزاء الشرقية من الإمبراطورية الرومانية انتشـــرت الأديـــرة فـــي آســـيا الصغرى وحول القسطنطينية وفى اليونان وفي الجزر فى جنوب إيطاليا وصقلية وفـــى البلقـــان

---

(١) منطقة نتريا اوبرنوج فى إقليم مصر يقع على حافة الصحراء يتاخمه من الشـــرق الأراضـــى الزراعيـــة ومـــن الغرب الصحراء وجبل نتريا أقرب إلى الريف منه إلى الصحراء وكانت تعتبر منطقة نتريا فى حيز الدلتا أكـــثر منها فى حيز الصحراء وهى تبعد حوالى أربعين ميلا رومانيا عن مدينة الإسكندرية أى مـــا يعـــادل ٦٥ كيلـــو متر فى الاتجاه الغربى وتريا أوبرونج كانت ميناء على قنال يسمى توفراطس الذي يصل فرع النيـــل الكـــانوبى ببحيرة مريوط وبالتالى بالإسكندرية رأساً بواسطة الطريق البحرى. لمزيد من التفـــاصيل ، انظـــر: الأب متـــى المسكين: الرهبنة ، ص ١٧٤-١٧٦.

(2) Byzantine Monasticism, in C. M. H. Chapter XXV P. 161.

(3) Byzantine Monasticism. P. 163.

وتزايد النساك. إن الأنظمة وحياة القديسين وتعليمات الأديرة Sermons وتأسيس الإحسان والامتياز الإمبراطورى نهضوا كشاهد على قوة تلك الحركة في حياة التنسكية كما إن الشكل الذى كانت عليه فى القرن الرابع كان مستمراً وعن طريق طبيعة الجماعة الكنوبية وجدت الديرية لها مكاناً في إطار الأسقفيات وكان من السهل أن يوضع قانون أو سيطرة Legislate أكثر من وضع النساك المنفردين والدليل على انتشار الأديرة الأسقفية وجود تسع وثلاثون منزلاً للرجال في أسقفية قبادوقيا وحدها في سنة ٥٣٦م.(١)

وظهر فى مطلع القرن التاسع الميلادى تيودور الاستوديون Theodore the studius والذى قام فى بداياته بالدفاع عن الأيقونات وعندما سمحت الظروف قام بعملية إصلاح فى الحيلة الديرية وفكر فى أن الفساد أو التدهور الذى وجده يمكن السيطرة عليه من خلال العودة إلى تعليمات الآباء وقد أكد على كتابات باسيل وخصوصاً ما يسمى بالأنظمة الديرية وأشار إلى أن تعبيراته مدينه إلى دائرة غزة التابعة للقرن السادس الميلادى. أو إلى الأديرة الفلسطينية حيث كانت إدارة الأديرة قد تطورت أكثر مما كانت عليه فى القرن الرابع فى قبادوقيا.

لقد كان تيودور قائداً روحياً ومديراً إدارياً وكتاباته ، على وجه التحديد ، وضحت موهبته والمصاعب التى واجهها. لقد اعتبر تيودور المجموعة كلها كل لا يتجزأ واعتبر أن أب الدير أو مقدم الدير لا يستطيع العيش فى وحده وباعتباره القائد يجب أن يكون نشيطاً ومسئولا ، ليس فقط عن التعليمات الروحية ولكن عن سلطة الكهنوت الرسمية التي شاركت فى إدارة الدير. لقد أصر تيودور على الطاعة المطلقة وعلى التوسط فى الممارسات التنسكية لذلك كان نموذجه نموذجاً يمكن أن يكون فى متناول الجميع. وقد وصف نظامه بأنه أفضل نظام يتحاشى المبالغة والمغالاة والتقصير ، وان دير ستوديون Studite لم يكن مبتدعاً ولكنه يتبع نموذج الدير المثالى فى إطار الشراكة الكنوبية ومارس تأثيراً قوياً على الأديرة التى أسست على

(1) Byzantine Monasticism. P. 165.

نمطه ومن تلك الأديرة دير القديس اثناسيوس على جبل آتوس Athanasius Monastry on Mt. Athos[١].

ولم تعرف الكنيسة الشرقية أى أنظمة ديريه مكتوبة تنفذ بحذافيرها ولكن هناك الأنظمة التي يتبناها مقدم الدير أو ما يسمى Typicone لتيسير أمور الحياة المشتركة ولا توجد لديه الكثير من التفاصيل ليتبعها خطوة بخطوة ولكن هناك مفهوما عاما فى جميع الأديرة سواء كانوا كنوبيين أو من جماعة اللافرا Lavra أو النساك Eremitis إن الراهب كان مفرغاً نفسه أو واهباً نفسه إلى الله ، كما لوحظ عدم وجود تعليم منظم teaching order أو أنظمة عسكرية أو أنظمة بعثات تبشيرية كما كان معمولا به في الغرب. وبالرغم من قيام الأديرة بعدد من الخدمات للمجتمع من حولهم فإن تلك الخدمات كانت تعتبر خدمات ثانوية ولم تكن الهدف الرئيسى للرهبان. وهذا لا يتضمن أن الأديرة الرومانية الشرقية كانت قد وصمت بأى نوع من أنواع الشكل الموحد أو النمط الموحد ف حاجة إلى التنظيم.

إن المصادر الأدبية وبالذات حياة القديس سيمانون Symeanoy وضحت وأبرزت عمق الروحانية البيزنطية وبينت ثروة وغنى الروح وتفضيلها عن الحياة اليومية وممارساتها[٢].

الفترة المبكرة فى تاريخ الأديرة أشارت إلى التهديد بخروج الأديرة عن سلطة الأسقفية ولكن تصرف الكنيسة بحكمة والسياسة الإمبراطورية عملاً معا على إعادتها إلى إطار عمل الكنيسة وذلك الإنجاز تم من خلال مراسيم وبيانات المجامع الدينية ومدعمه أيضاً بمجامع الكنائس المحلية وأنظمة البطريركيات. إن الكنائس المسيحية نفسها قويت بحضور ونمو الروحانية الرهبانية ، ومع ذلك فإن مجمع خلقدونية سنة ٤٥١م. أقر على أن الرهبان يجب أن يفرغوا أنفسهم للصلاة والصوم وأن لا يتدخلوا فى السياسة الدينية أو الشؤون السياسية. وعليهم أن يتذكروا إقرار وترسيخ سلطة الأسقف والأسقفيات الذى يجب أن يأخذ الرهبان أذنه إذا

---

(١) استيفين رينسيمان: الحضارة البيزنطية ، ترجمة: عبد العزيز توفيق جاويد ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٩٦١م ، ص ١٢٨.

- Byzantine Monasticism, P. 167.

(٢) القوانين ٤ و ٢٤ من قوانين مجمع حلقدونية المنعقد سنة ٤٥١ لمزيد من التفاصيل أنظر:

- Byzantine Monasticism, P. 167.

أرادوا القيام بأي عمل خارج أديرتهم وأن الأديرة بنيت من أجل العبادة منذ تأسيسها ولا يجب تحويلها إلى أغراض دنيوية.[1].

وليس معنى هذا القول أن الأديرة كانت مغيبة عن الحياة الدنيوية والحركة السياسية ، لقد كان الرهبان يمثلون قوى تثير القلاقل داخل المجامع الدينية ومن خلال حمى الجدل الهرطقى خاصة منذ القرن الرابع حتى السابع كما أنهم كانوا مراكز مقاومة عنيفة في أقاليمهم ومن ذلك الدور الذي لعبه الرهبان المصريون فى القرنين الرابع والخامس لتأييد كنيسة الإسكندرية ضد القسطنطينية كنيسة وحكومة. وفى القرن الرابع ظهر دورهم واضحاً فى مناصرة انطونيوس لاثناسيوس فى بداية النزاع الأريوسى ثم قام الرهبان بحماية اثناسيوس أثناء هروبه وذلك فى عهد الأباطرة قسطنطيوس وجوليان المرتد و فالنز. لقد قام الإمبراطور فالنز عام ٣٧٣م. بمهاجمة الأديرة المنتشرة من فم النيل إلى طيبة معتبراً الرهبان حماة الكنيسة.

كما كانوا مصدراً من مصادر الشغب فقد أخذ بعض الرهبان يعملون على هدم التراث والقضاء عليه دون تفريق بين عقائد الوثنية وحضارتها وينسب إلى الرهبان الأعمال الهدامة التى اقترفت ضد التراث الوثنى مثل تحطيم المعابد الوثنية وما بها من آثار من مخلفات فنية وحرق المكتبات خاصة مكتبة الإسكندرية. واضطهاد رجال الفكر وذلك مثل ما حدث للفيلسوفه هيباتيا Hypatia لقد وضح تأثير الأديرة على الرأى العام وبشكل بارز خلال الحركة اللاأيقونة ، حركة إبطال عبادة الصور ، والتى برزت منذ القرن الثامن الميلادى ومن خلال الكفاح ضد حركة إبطال عبادة الصور أظهر الرهبان قوتهم للوقوف أمام سلطة الدولة والإمبراطور ، وهذا الأمر أدى إلى وجود صراع بين الرهبان والدولة ولكن قبل استعراض هذا الصراع علينا أن نبرز نمو الأديرة من الناحية الاقتصادية كما أبرزنا نموها من الناحية الروحية ، هذا النمو الذى كان لب الصراع .

---

(1) Bzyantine Monasticism, P. 167.

- The Chronicle of John Bishop of Nikiu, LXXIII

فى ذكر حريق إنطاكية أرسل رهبان الصحراء الاسقيط رسالة توبيخ الى الامبراطور.

إن أملاك الأديرة تطورت بفضل ما قدمه الأتقياء على اختلاف طبقاتهم من الوصايا والمنح للأديرة وواحد من أشهر الأباطرة الرومان الشرقيين وهو نقفور فوكاس Nicephrus Phocas (٩٦٣ – ٩٦٩م) ساهم فى تشييد دير لور Laure على جبل آتوس Athos الذى يعتبر واحداً من أكبر الأديرة وأوفرها ثروة ، إن نموذج دير جبل آتوس يمثل ملكية الأديرة فى عدد من الأوجه:

الوجه الأول: الأعطيات Donations .

الوجه الثانى: Request الوصية او توريت توصيه.

الوجه الثالث: البيوع.

الوجه الرابع: هو ابتلاع غيره من الأديرة(١).

والحقيقة الهامة فى نماء ملكية الأراضى والثروة بالنسبة للأديرة أنها كانت تعتمد بالدرجة الأولى على أعطيات الأرستقراطية والأباطرة ، وان هذه الأعطيات كانت أهم مصدر لثروة الأديرة ، ولم تقف الأعطيات والمنح عند الأباطرة والطبقة الأرستقراطية ولكن تعدى ذلك إلى جميع الطبقات سواء كانوا علمانيين أو رجال دين. إن الأديرة الكبيرة التى كان لها حماة من الأثرياء والأقوياء والأباطرة أمثال نقفور فوكاس وحنازمسكس وكذلك آل كومنين فى القرن الثانى عشر هذه الأديرة كتب لها البقاء والاستمرار. ولكن الأديرة الصغيرة والتي بناها الفلاحون فى الأرياف كانت حياتها قصيرة الأجل وهى لا تكاد تعرف إلا عن طريق المصادفة والتى يأتى ذكرها فى إشارات عابرة في كتب حياة القديسين ، وربما يكون للدير الواحد عدد من الحماة. وحقوق المؤسس يمكن أن تنقل بالوراثة أو بالاتفاق أو بالبيع أو بالتوكيل. ولا يجوز إنشاء الدير إلا بموافقة الأسقف وربما يكون الأذن عن طريق الإمبراطور أو البطريرك. وكان هناك عدد من المؤسسات الديرية فالدير العادى eparchral وهذا يأتي مباشرة تحت سيطرة الأسقفية وفى بعض الأحيان تحت أكبر سلطة دينية مثلما وجد في قبرص وهو تحت سلطة كبير الأساقفة archoishop. أما بعض الأديرة فقد بحثت عن الحماية الإمبراطورية أو بواسطة

---

(1) Alan Harvey, The Monastic economy and imperial patronage from the Tenth to the Twelfth Century in: Mount Athos and Byzantine Masticism, ed. By Anthony Bryer and Cunningham. Vir (1996) P. 92.

بعض الشخصيات الملكية أو الإمبراطورية وهؤلاء تمتعوا بكل الاستثناءات لأنهم تحت السلطة الإمبراطورية[١].

أما الطريقة التي توسعت بها ممتلكات الأديرة هى وضع أراضى بعض الملاك تحت حماية الأديرة وذلك عن طريق نظام يطلق عليه اسم (Gift of Grace) (Charistikion) وهذا يعنى أن المالك قد وضع أملاكه تحت حماية الأديرة تحت غطاء العطاء الشخصى المشروط لفترة معينة وهى إما تكون " فترة حياة الواهب " وبعد وفاته تعود لورثته Lifetime أو لفترة ثلاثة أجيال.

وطبق هذا النظام بشكل واسع وغالباً ما يكون هناك إشراف على تلك الأراضى من قبل أشخاص معينين ، ربما من قبل الشخص الواهب دون التدخل فى الحياة الدينية للدير وربما يكون الإشراف على تلك الأراضى تعود للإمبراطور نفسه. وقد تدخلت الدولة فى إعطاء مميزات خاصة واستثناءات من دفع الضرائب وقد أصبحت قاعدة أو ظاهرة عامة.

لم يقتصر امتلاك الأديرة على الأراضى والحقول والبساتين والمراعى فقط بل تعدى إلى امتلاك المواشى والطواحين ومصائد الأسماك والملاحات Saltwork وأماكن معده للإبحار وبعض الأنهار فى المدن هذا بالإضافة إلى ورش العمل. كما أن الأديرة تسلمت هبات من النقود ومن الأشياء الثمينة وذلك لقاء أو مقابل ما يسمى بالأخوة أو المؤاخاة أو ما بعد الوفاة بالـ Adelphate أو Posthumous.

إن ثروة الأديرة تزايدت بسبب استثناء الأديرة من دفع الضرائب للدولة. إن الإمبراطور نقفور فوكاس حاول ولكنه فشل فى أن يكبح جماح ممتلكات الأديرة. وقد اصدر مرسوما فى سنة ٩٦٤م. حرم بموجبه أى حيازة أكثر للأراضى بالنسبة للأديرة ، خصوصاً بالنسبة للأديرة التى لديها نقص فى الأيدى العاملة والتى تقوم بزراعة تلك الأراضى التى يملكونها فما بالكم بالأراضى التى سوف يملكونها. وقد قام خليفته John Tzimiskes جنا تزمسكس (٩٦٣ –

---

(١) ساعد الإمبراطور نقفور فوكاس صديقه اتناسيوس على تاسيس دير على النسق الكينوبى ، عرف باسم اللا فرا العظمى Great Lavra لمزيد من التفصيل انظر:

- Rosemary Morris, the Origins of Athos. In: Mount Athos and Byzantium P. 37-46.

٩٧٦) قام بإبطال ذلك المرسوم ومن ثم فقد استمرت الأديرة فى امتلاك الأراضى وامتدت ممتلكاتها ومثال على ذلك دير Pantokrats فى القسطنطينية وهذا الدير وحده مسجل كواحد من كبار ملاك الأراضى فى الإمبراطورية البيزنطية.

لقد أصر الإمبراطور نقفور على الفقر الذى سار عليه كل الآباء في مصر وهاجم الرفاهية والثروة للأديرة فى وقته. وقد حرم أيضاً تأسيس أديرة جديدة وقد حث على أن الصدقات يجب أن توجه لمساعدة المؤسسات الديرية القائمة والتي أصبحت خربه نظراً لحاجتها للأموال بدلاً من إنشاء مؤسسات جديدة وأضاف إلى أن تأسيس قلايا للنساك والأفرا Lavra كان مسموحا به كما تستحق التبرع طالما أنها لا تحاول أن تمد أراضيها إلى ما حولها. ومرسوم ٩٦٤م هذا وضع على أساس مفهوم الأديرة العليا ، وكان يرمى إلى مغزى إن إعطاء الأملاك إلى الأديرة ربما يبقى غير منتج وهذا يحرم الدولة من دخل هام هى فى أمس الحاجة إليه ألا وهو دخل الضرائب التى كانت الأديرة والكنائس معفية من دفعه للدولة.

إن اسم الإمبراطور نقفور فوكاس ورد لدينا فى جانبين متعاكسين أو متناقضين: الجانب الأول كنموذج لحماية ورعاية الأباطرة للأديرة ثم فكرة مصادرة أموال الأديرة لصالح التيمات التفور. وفكرة مصادرة أموال الأديرة، لصالح التيمات ، التفور سبقه إليها الأباطرة اللا أيقونيون. ولكن قبل الدخول فى مناقشة أهداف الأباطرة من مصادرة أموال الأديرة علينا أن نشير إلى أنه كان من النادر أن تقوم الأديرة بشراء الأراضى ويستدل على ذلك من سجلات الأديرة نفسها التى تشير إلى أن معظم ثروتها آلت إليها عن طريق الحماية والرعاية والإحسان. وهذه الوثائق من نهاية القرن الثالث عشر إلى القرن الخامس عشر والتى سجلت ممتلكات الأديرة من الأراضى فى كل من جنوب مقدونيا وطرابيزون وجزر البحر الايجى وهذه الوثائق تعطى انطباعا عن ملكيات الأراضي الواسعة للأديرة في خلال الفترة الأخيرة للإمبراطورية الرومانية الشرقية وهى أيضاً تفسر ميل الدولة فى محاولة الحد من نمو ملكية الأراضى بالنسبة للأديرة[1].

---

(1) The Oxford Dictionary of Byz. Vol. 2. P.1393.

ونعود إلى نموذج دير جبل آتوس والذى زادت مساحته بالاستيلاء على الأديرة الأخـــرى وواحد من الأسباب التي جعلته يبتلع غيره من الأديرة هو مقدرته على جعل هذه الأديرة تزدهـــر وتعيد الزراعة والحياة على أراضيها. ولم يستطع أن يقوم بهذا الدور إلا أنه كان يتمتـــع بـــالدعم الإمبراطورى كما أشرنا إلى ذلك آنفاً آلا وهو دعم كل من الأباطرة نقفور فوكاس الذى ساهم فى التأسيس وحنا زمسكس من بعده[١].

وبعيدا عن امتيازات السلطة فان أنواعا كثيرة ومختلفة من المؤسسات الديرية قد نشـــأت والشكل القانونى كان الشكل السائد للحياة الديرية المنظمة لكل من الرجال والنساء. وكان هنـــاك الـ Metochion وهو عبارة عن دير صغير قام بشكل مستقل ومهمته تسهيل إدارة العقـــارات البعيدة وكان يسمى الدار الأصلى أو الكبرى أو الدير الام وكان تحـــت ســـيطرة (أم المـــنزل) Mother house ولم تكن الأديرة المختلطة شيئاً غير معـــروف ولكنها لم تكـــن مقبولـــة وقـــد حرمها الإمبراطور جستنيان بموجب القانون رقم (١٢٣) كمـــا حرمـــها مجمـــع نيقيـــا الثـــانى (القانون ٢٠) وفى العصور الوسطى المتأخرة أزال بطريرك القسطنطينية نيكـــولاس مؤسســـة مختلطة أسسها سلفه البطريرك أثناسيوس. كما أن المصطلح Laura يشير إلى denoting وهـــو قائم على فكرة الأعطيات وكانت عبارة عن مجموعة من القلايا تحت إشراف شخصية لها وزنـــها بين المجموعة Superior كأن تكون لها أقدمية هذا بالإضافة إلى مجموعة النساك المتفرقة حيث كل اثنين أو ثلاثة من النساك تحت إدارة واحدا أو اكثر من الرهبان المتمرسين. وقـــد تمـــيزوا بالمصطلح Kellion والمصطلح Asceti وهؤلاء تجمعوا تحت إدارة قائد يطلق عليه dikaio[٢] هذا مع تأكيد الملاحظة على أن لكل دير من الأديرة الشرقية تنظيماً خاصا به يضعـــه المســـئول عنه والذى يسمى Typikon وكان يوجد بعض الاتصال بين الأديرة مثل تلك الواقعة فوق الجبال المقدسة أو بين الأديرة الكبيرة وبين الأديرة الصغيرة التابعة لها.

إن فكرة بروز نمو الأديرة من الناحية الاقتصادية قابله فكرة مصادرة تلك الأموال عـــن طريق محاربة الرهبان والأديرة من قبل الأباطرة. وإن هذه الفكرة عبارة عـــن تراكمـــات مـــن

---

(1) Alan Harvery, the Monastic Eeconomy. P. 92-93.

(2) Byzantine Monasticism, P. 169

السلبيات الناتجة عن هروب الناس إلى الأديرة وتفاقم عدد الأديرة فى الإمبراطورية وقد قام الباحث كارانيز charanise بمحاولة لحصر وبيان عدد الأديرة في الإمبراطورية من خلال القوائم التي أوردها غيره من الباحثين وهى تقدر بحوالي سبعمائة دير. ويقول ان هذا العدد يختلف من قرن لآخر حيث يذكر أن كان فى العاصمة وحدها حوالى اثنين وتسعين ديراً وذلك فى القرن السادس الميلادى(١).

لذلك وضع الأباطرة البيزنطيون شروطاً لدخول الأديرة ومن أهم تلك الشروط تحريم دخول العبيد إلى الأديرة وذلك وفقاً للقوانين التي دأب الأباطرة على إصدارها منذ مجمع خلقدونيه المنعقد فى سنة ٤٥١م إذ نص القانون رقم ٤ على المطالبة بالعبيد الهاربين إلى مدة ثلاث سنوات كذلك قانون جستنيان رقم ٥ وقانون ليو السادس رقم ١٠ وكذلك بالنسبة للمتزوجين على الزوج أو الزوجة الحصول على رضا الطرف الآخر من أجل فسخ الزواج أو الخطبة وعليه أو عليها إعادة المهر dowry أو تكاليف الزواج وهناك تدابير تؤخذ من أجل إمداد الأطفال والآباء كبار السن ، كما وضعت أنظمة خاصة بالنسبة لسن الفتيات لدخول الدير وهذه الأنظمة مختلفة بالاستناد إلى القانون المنسوب إلى باسيل العظيم فإن السن المقبول بالنسبة لقبول الفتيات يتراوح ما بين ١٦ – ١٧ سنة أما مجمع Quinisextum الذى عقد سنة ٦٩١ فقد خفض هذا السن إلى عشر سنوات أما قوانين ليو السادس فجعلها تتراوح ما بين ١٠ و ١٦ و ١٧سنة.

أما القانون رقم ٦ ينص على أن ممتلكاتها لا يمكن التصرف بها حتى تصل إلى السن المناسب وهو ١٧ سنة. وقد فضل تيودور الاستوديون سن ١٦ سنة. إن دخول الدير كان يتبعه ثلاث سنوات يكون الراهب فيها تحت الاختبار وذلك وفقاً لقانون جستنيان ١٣٢ الذى نص على ثلاث سنوات تمرين للعبيد والأشخاص الغير معروفين وأعطى مقدم الدير الفرصة لإنقاص تلك المدة بالنسبة لأولئك الذين يظهرون التزامهم. وأكد هذا القانون عن طريق مجمع Quinisextum وذلك بموجب المادة ٤٠ ولكن فى سنة ٨٦١م فإن مجمع القسطنطينية وبموجب القانون رقم ٥ فقد مد فترة التمرين لمدة ثلاث سنوات بالنسبة للجميع باستثناء

---

(1) Peter Charanis, the Monki, P. 64-67.

المرضى فى حالة خطيرة والذين يمكن السماح لهم بدخول الدير وأولئك الذين هم على خلق وفضيلة فإن مدة ستة شهور كافية لاختبارهم. ولكن القديس اثناسيوس من القرن العاشر والذى شغل منصب Typicon فى اللافرا العظمى على جبل آتوس قال بسنة واحدة للتمرين[١].

إن الأمور التى أشرنا إليها آنفاً هى أمور يمكن وضعها تحت فكرة التنظيم والانضباط ولكن زيادة عدد الأديرة قابله فكرة الاحتيال على دخولها خصوصا من قبل الشباب الذين خدمتهم كملاجئ للحياة الروحية ولكنها أضرت بالدولة وجعلتها تفقد حاجتها الضرورية والملحة من الجنود والمزارعين[٢]. وقد أشرنا في أسباب ودوافع دخول الأديرة أو اعتناق فكرة الرهبنة الأسباب الدينية والدنيوية التى دفعت البعض إلى دخول الأديرة وهناك من يذكر الكثير من مساوئ الأديرة وجعلها سببا من أسباب سقوط الإمبراطورية الرومانية وعلى رأس هذه الأسباب هروب الشباب من الخدمة العسكرية إلى الأديرة فقد لجأ الكثيرون إلى الأديرة هرباً من حياة البؤس من ناحية وتخلصاً من المشاكل السياسية والاقتصادية من ناحية أخرى فقد هرب الفلاحون والعبيد والصناع من حياة الفاقة والازدراء كما فضل البعض حياة الرهبنة على أخطار الحياة العسكرية وهرع الكثير من سكان الولايات إلى الأديرة كلما تملكهم الذعر وصادفتهم مشكلات اقتصادية أو حتى سياسية حيث يجدون المأوى والغذاء. وهكذا غصت الأديرة بجمع غفير من الناس وأصبحت سبباً من الأسباب التي أوهنت قوى الإمبراطورية.[٣]

كما أنها شلت الكثير من مرافق الحياة العامة وأدت إلى تمزيق كيان الأسرة لذلك وجدنا أن الحكومة الرومانية لجأت إلى سن القوانين لتنظيم الدخول إلى الأديرة ، منهم الإمبراطور موريس الذى حرم على الجنود الذين هم على رأس العمل والمدنيين الذين هم مدينين بأموال

---

(1) Byzantine Monasticism, P. 172-173

- Jones, Decline P. 333. ـ أيضاً:

(2) A. A. Vasilliere, History of the Byzantine Empire 324-1453. Vol. 1. The University of Wisconsin press (1957). P. 257.

(٣) جيبون: اضمحلال الإمبراطورية ، ج ٢ ، ص ٣٢٥-٣٢٦.

للخزينة العامة أن يقبلوا في الأديرة. وقد قاوم هذا القانون البابا جريجورى العظيم (ت ٦٠٢م)[١].

لقد أظهر الرهبان قوتهم من خلال المجامع الكنسية وعن طريق حركات العصيان. ولكن ظهور حركة إبطال عبادة الصور أو الحركة اللاأيقونية[٢] ، أظهرت قوى الرهبان بشكل واضح. إذ أن الأديرة كانت في بداية حركة إبطال عبادة ، هدفا لمهاجمة عبادة الصور وذلك نظرا لوجود عدد كبير من الصور (الأيقونات) والمقدسات التي امتلكها الرهبان وحوتها الأديرة ، ولكن بعد المجمع الذي عقده الإمبراطور قنسطنطين الخامس Constantine V (٧٤١ - ٧٥٥) فإن الرهبان أنفسهم أصبحوا الهدف وليست الصور أو دفاعهم عنها[٣].

إن فكرة إبطال عبادة الصور فى الديانة المسيحية لم تكن جديدة كما يظن الكثير وأنها وليدة القرن الثامن ولكنها فكرة قديمة برزت من انتشار الأيقونات في أماكن العبادة ، ومن المعروف أن المسيحيين الأوائل قد بذلوا جهداً في إزالة معالم الوثنية من صور وتماثيل مسترشدين في ذلك بهدى الكتاب المقدس. من ذلك ما فعله الإمبراطور تيودوسيوس العظيم (٣٧٩-٣٩٥م) حين أزال تمثال آلهة النصر من بهو مجلس الشيوخ الرومانى. أما فكرة انتشار عبادة الصور أو الأيقونات جاءت من أجل تقريب الدين إلى عقول العامة فأباحوا تصوير المسيح والعذراء والحواريين وبعض كبار القديسين الأولين. وأجاز الأباطرة للفنانين أن يخرجوا مثل هذه الصور وقالوا أن هذه الصور ليست سوى وسيلة للتعليم ولكن ما لبث الأمر أن تطور وأصبحت الصور في منزلة الكتاب المقدس من الإجلال والتقديس إذن تطور الأمر من مجرد وسيلة للتعليم إلى نوع من العبادة. غير أن انتشار الأيقونات لم يرض عنه فريق من المسيحيين منذ بداية ظهورها. فبدت معالم الاحتجاج والإنكار بل والمقاومة تظهر من وقت لآخر وبمعنى آخر قامت حركة مضادة لعبادة الصور أى حركة لا أيقونية قبل عهد الأسرة الأيسورية التى

---

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور: تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى ، بيروت ١٩٧٢ ، ص ١٦٢. أيضاً:
- Jones, Decline, P. 333.

(٢) الحركة اللا أيقونية هى حركة إبطال عبادة الصور التى عرفت فى المصطلح باسم أيقونات Icons وهى مشتقة من الفعل اليونانى Eiko بمعنى أشبه والاسم Eikon ومعناه صورة مقدسة.

(3) John Julius Nowich, Byzantine the Early Centuries. Penguin, London (1988). P. 361.

اقترن تاريخها بالحركة اللا أيقونية. فمنذ القرن الخامس أبدى بعض الأساقفة نذكر منهم الأسقف فبلوكسين في هيرابوليس. كذلك قامت حركة ضد عبادة الصور فى إنطاكية فى القرن السادس الميلادى كذلك إحتجت جماعة البولصين Paulicialls فى مدينة كوماجين على مقربة من أرمينيا فى منطقة آسيا الصغرى ، الذين دعوا على تنقية العبادة من بدعة عبادة الصور.[١]

وفى القرن الثامن قام الإمبراطور ليو الأيسورى (٧١٧ - ٧٤٠) بشن حرب ضد الأيقونات التي قيل بتأثره بالدين الإسلامى الذى يحرم عبادة الصور وكذلك الدين اليهودى ولكن كان هناك عوامل أخرى غير دينية اقترنت بالحركة اللا أيقونية منذ عهد ليو الأيسورى. فقد كانت الإمبراطورية فى حاجة مالية وعسكرية أي أنها كانت بحاجة إلى توفير المال والرجال لحمايتها من خطر الدولة الإسلامية شرقاً ومن البلغار غرباً وان هذين العنصرين متوفران فى الهيئة الدينية إذ كثرت الكنائس والأديرة وتضخمت أوقافهما المعفاة من الضرائب وكثر عدد الأشخاص المنخرطين في الأديرة كما أشرنا إلى ذلك ، إيثاراً للدعة وطلبا للهدوء والعافية مع جلال المركز ووقار الهيئة لهذا الهدف ترهبن عدد لا يستهان به من رجال الحرب ورجال الحكم والإدارة. هذا بالإضافة إلى الزراع والعمال. وقد رأى ليو الايسورى أن يستدرج هؤلاء من أديرتهم ليستفيد منهم أولاً لكى يستولى على أملاك الأديرة ثانياً فيتوفر له المال اللازم لبناء دولته[٢]. كما أن هدفه الثانى: كان الحد من سلطة رجال الدين على اختلافهم حيث انهم تمتعوا بسلطان روحى قوى على جميع الطبقات العامة ونفر غير قليل من الخاصة. فأراد ليو أن يصل من وراء إبطال عبادة الصور إلى تخليص الناس من هذا النفوذ الذي كانت عبادة الصور أقوى وسائله[٣].

ونتيجة لتلك الحركة انقسمت الإمبراطورية إلى معسكرين المعسكر الأيقونى (أى المدافع عن عبادة الصور) يتزعمه بطريرك الكنيسة بالعاصمة وهو البطريرك جرمانوس وبابا

---

(1) Vasilieve, History of the Byzantine P. 254-255.

(٢) إبراهيم طرخان: الحركة اللا أيقونية فى الدولة البيزنطية. مطبعة لجنة التأليف والنشر ، القاهرة ١٩٥٦. ص ٧-١٣.

(٣) إبراهيم طرخان: الحركة اللا أيقونية. ص ١٤.

روما يشد أزرهما أغلب الرهبان وكثير من النساء ومن وراءهم العوام. ويتزعم المعسكر اللا أيقونى. الإمبراطور ليو الايسورى يشد أزره نفر من كبار رجال الدين الحاقدين على الرهبان لكثرة ثراءهم وقوة نفوذهم ، ومنهم قنسطنطين أسقف ناقوليا (Nacolea) وتيودوسيوس أسقف أوفسيس Ephesus كذلك انضم إلى الامبراطور كبار رجال الإدارة والوزراء وكبار رجال الدولة ويحمي ظهره رجال التيمات من آسيا الصغرى وعلى وجه الخصوص رجال تيم الأرميناك (الأرمن)[١].

وأعلن قنسطنطين الخامس (٧٤١ - ٧٧٥م) حرباً صليبية ضد الرهبان الذين وصفهم بقوله: (الوثنيين المحبين للظلام). إن كفاحه ضد الأديرة كان مكثفاً إلى حد أن بعض الباحثين وجدوا فيه مجالاً واسعاً للنقاش وطرحوا سؤالاً هاماً هل كان هذا صراع أو عداء موجه لعبادة الصور أم للرهبان؟ الذى ظهر فى عدد من الأشكال بالغة القسوة. حيث أجبر الرهبان على لبس الملابس المدنية وأجبروا على الزواج بالقوة والتهديد وأجبروا على عرض أنفسهم فى ملعب هبيدروم فى العاصمة وهم يتأبطون أذرع النساء[٢]. وقد أشار تيتوفانس إلى أن حاكم افيسوس جمع الرهبان والراهبات وقال لهم: من يريد طاعة الإمبراطور وطاعتنا عليه أن يرتدى الملابس البيضاء وأن يتزوج في الحال. والذين يرفضون سوف نسمل أعينهم وينفون إلى قبرص ، وقد أرسل إليه الإمبراطور قنسطنطين يشكره على ما قال: وجدت فيك ما أجده في نفسى.[٣]

وكانت قبرص المكان الذي ينفى إليه الرهبان العصاة المتمردون ويقال أن خمسة من الرهبان الذين نفوا إلى قبرص تمكنوا من الهروب إلى بغداد. هذا بالإضافة إلى مصادرة الأديرة نفسها وتحويلها إلى دور لصناعة الأسلحة arsenils والى ثكنات عسكرية. كما أن أملاك الأديرة

---

(١) إبراهيم طرخان: الحركة اللا أيقونية. ص ١٦.

أيضا:

- J. F. Haldon, Some Remarks on the Back ground to the Iconoclast Controversy Byrant. Inoslavica, 38 (1977).

(2) John Julius Norwich, Byzantine. P. 361.

(3) Theophanes, The chronicle of theophanes, English transl. By Harry Turtledove, University of Pennsylvania press. Philadeliphia, (1982) P. 445-446.

- Vasilieve, History of by P. 262. أيضاً

صودرت وأجبر رجال الدين على اللجوء إلى الاختباء. كل هذه الأمور قادت الرهبان إلى الهجرة إلى أماكن بعيدة عن سيطرة الإمبراطورية وفى خلال فترة المذبحة التى أقيمت ضد عبادة الصور. وفى عهد كل من ليو الأيسورى وقنسطنطين الخامس قدر عدد الرهبان الذين هاجروا إلى جنوب إيطاليا وحدها بحوالي خمسين ألف راهبا.

وهذه الأحداث تعتبر نقطة تحول هامة فى مصير جنوب إيطاليا فى العصور الوسطى من حيث انتشار وتأثير سيطرة العنصر اليونانى والكنيسة الأرثوذكسية عليها ، هذا بالإضافة إلى هجرة عدد كبير من الرهبان إلى الشواطئ الشمالية للبحر الأسود والى سواحل سوريا وفلسطين. هذا بالإضافة إلى الكثير من الشهداء الذين قدمهم الرهبان. ومن أشهر الرهبان الشهداء فى عصر قنسطنطين الخامس كان ستيفن الأصغر Stephen the Young[1].

إن المدافعين عن أملاك الأديرة وجدوا من مصلحتهم تحويل النقاش إلى الأرضية الدينية ليبينوا أن نشاط الأباطرة كان نشاطاً إلحادياً atheistic وهرطقة وبذلك يصلوا إلى هدم الحركة وتشويه سمعة الإمبراطور فى نظر شعبه. إن طبيعة الحركة كانت مغلفة بمهارة ولا يمكن اكتشافها إلا بعد جهد جبار[2].

وكان من أشد المعارضين لإبطال عبادة الصور يوحنا الدمشقى ، الذى شغل وظيفة وزير المالية فى دار الخلافة الأموية فى دمشق ثم صار راهبا من رهبان دير القديس سابا قرب بيت المقدس والذى يعتبر واحداً من اشهر علماء الدين المسيحى فى عصره ، والذى اعتبر بطلا من أبطال الأرثوذكسية.[3]

ويقال إن الأديرة التى لم تكن موضوعه تحت السلطة هى التى يمكن أن تتعرض لإهانات شديدة. لذلك كان على الأساقفة أن يؤكدوا على الرهبان أن يفرغوا أنفسهم للصلاة

---

(1) Vasilieve, History of Byz. P. 262.

(2) Vasilieve, History of Byz. P. 253.

(3) Vasilieve, History of Byz. P. 253.

أيضا: G. Ostrogorsky, History of the Byzantine state.

والصوم وان لا يتدخلوا في الشئون السياسية[١] ولم تكن الفترة اللاأيقونية أو فترة الإمبراطور نقفور فوكاس هما الفترتان التي تعرضت فيها أموال الأديرة للمصادرة أو الانتقاد فإن ما نويل الأول كومنين Manuel I Coninenus أمر فى سنة ١١٥٨ بتحويل الأديرة إلى أماكن بعيدة في المناطق الريفية وفى القرن الرابع عشر عانت الحكومة من الفقر وضغط الحاجة إلى الدفاع فقامت بمصادرة أملاك الأديرة لصالح إقطاع البرونايا Pronaia (الجنود المرتزقة) وإلى سد عجز المصادر المالية للدولة[٢].

وما إن توفي قسطنطين الخامس حتى عاد بناء الأديرة إلى عهده السابق بل اعتبرت السنوات من ٧٨٠ –١٢٠٠ العصر الذهبي للأديرة البيزنطية وان قائمة (جانين) Ganin تشير إلى ثلاثة نقاط:

الأولى: أنه بنهاية عام ٧٨٠م بدأت فترة انتعاش فى بناء الأديرة.

ثانياً : ظهرت الأديرة الشخصية.

ثالثاً : إن الأديرة أسست بكثافة فى القرن العاشر أكثر من القرنين الثامن والتاسع أو حتى القرن الحادى عشر[٣].

إن الظروف الصعبة مثل ظروف الحركة اللاأيقونية جعلت أو خلقت نوعاً من التواصل بين الأنظمة الديرية المختلفة وكان يمكن لمجموعة من النساك أن يقيموا تحالفاً تحت قيادة راهب منتخب يسمى Protos وهذه العلاقة تعتمد بالدرجة الأولى على شخصية قائد أو مؤسس الدير وتحل بعد موته. وفي وقت أزمة الحركة اللا أيقونية فإن منطقة أثينا وما حولها امتلأت بالمهاجرين من الرهبان والأساقفة. وكان يوجد ما يسمى بالاجتماع المركزى والاستشارى ولكنه لم يكن متواجداً بصفة دائمة[٤].

---

(1) Byzantine Monasticism, P. 167.

(2) Byzantine Monasticism, P. 162.

(3) Peter Charanis, the Monki, P. 64-67.

(4) The Oxford Dictionary of Byzantium. Vol. 2. P.1392.

وبالرغم من أن الرهبان كانوا قوة قيادية في الدفاع عن عبادة الصور في القرنين الثامن والتاسع فإنه لا توجد براهين تربط بين الرهبان و بين الإنتاج الفنى[١].

ومع ذلك فقد كان للأديرة تأثير كبير على تطوير البيزنطيين من الناحيتين الدينية والروحانية حيث كان عدد من الشخصيات الدينية الذين كتبوا doctrion التعاليم العقائدية والطقوس الدينية والتصوف Mysticism كانوا من الرهبان ، إن التصوف الذي ظهر في القرن الحادى عشر نادى به القديس سيمون اللاهوتى Symeon the Theologian كما نال عدد من الرهبان حظ التأثير فى السياسة الدينية من خلال أعمالهم كأساقفة أو بطاركة وليس معنى هذا أن الرهبان كانوا طبقة مثقفة لأنه على عكس الغرب ، فإن التعليم لم يكن وظيفة من وظائف الأديرة البيزنطية. باستثناء تدريب أطفال قلائل وهبوا للحياة الديرية إذ أن التعليم لم يكن جزء من مسئولية الأديرة حيث كان هناك تسهيلات أخرى موجودة للأطفال البيزنطيين. باستثناء تعليم بعض الأطفال الأيتام الذي أشارت إليه أنا كومنين Ann Commenena ، لقد وجه والدها بعض مقدمى الأديرة بالنسبة للأطفال الأيتام وأن لا يعاملوهم مثل العبيد وعليهم أن يعلموهم تعليماً مقدساً. وذلك للعناية بالأطفال الذين يضمهم الملجأ الذى أسسه بنفسه للأيتام[٢].

أما قضية التعليم بالنسبة للراهب فهي موضوع نقاش فهل كان على الراهب أن يعرف القراءة والكتابة وإن معرفة الراهب للقراءة كان شيئاً متوقعاً والتي أصبحت جزءاً من تقاليد الأديرة منذ تأسيسها، وقد وضع القديس باخوم قاعدة تنص على أنه من دخل الدير وهو جاهل للقراءة والكتابة عليه أن يتعلم القوانين التى يجب المحافظة عليها وعليه أن يتعلم عشرين من المزامير Psalms واثنين من epistles الرسائل الإنجيلية أو جزء من كتاب آخر scripture من الكتاب المقدس وإذا لم يكن يعرف القراءة عليه أن يتعلمها عن طريق الدراسة ثلاث مرات فى اليوم مع أى شخص آخر من زملائه قادر على تعليمه. ويمكن للجهال بالقراءة والكتابة دخول الأديرة ولكن وبعد أن يصبحوا رهبانا فعليهم تعلم القراءة على أقل تقدير. وقضية تعلم مهارة القراءة وجدت لها قبولا في الأديرة البيزنطية ونص عليها قانون. وكان التدريب على القراءة من

---

(1) The Oxford Dictionary of Byzantium. Vol. 2. P.1394.

(2) Anna Commenena, The Alexiad of Anna Commenena, Trans. By E. R. A. Sewter, Penguin Books, (Singapor, 1985) Book XV VII.

كتب دينية حيث كان هناك عداء فى الأديرة ضد الكتب الدنيوية أو الأدب الدنيوى بصفة عامة.(١)

والالتزام بتعلم القراءة يفسر لنا وجود المكتبات في عدد كبير من الأديرة وفى حالات كثيرة أيضاً وجود عدد لا يستهان به من النساخ ويقال انه فى القرنين العاشر والحادى عشر كان حوالي خمس وعشرين فى المائة من النساخ من الرهبان. إن معظم مكتبات الأديرة كانت متواضعة في الحجم ومحدودة الأفق ومقتصرة على الكتاب المقدس أو حياة القديسين والمواضيع الدينية واللاهوتية(٢).

ولكن من الخطأ أيضاً أن نعتبر أن جميع الرهبان البيزنطيين كانوا متعلمين، وهناك أشخاص معروفة أسماءهم كانوا لا يعرفون القراءة قبل دخولهم الاديرة ولكنهم تعلموا القراءة والكتابة وهم على سبيل المثال القديس Neophytus of Cyprus نيوفيتوس القبرصى. ولكن هناك البعض الذين بقوا على جهلهم ومنهم جرمانوس Germanus الذى أصبح بطريركا فى سنة ١٣٢٠م ، ومن الصعب أن نصدق أن تلك الغالبية من الرهبان الذين تبعوا القديس ميليتيوس Meletios على جبل تيراتيون Cithearon كانوا متعلمين بل على العكس لم يتعلموا حتى القراءة وكان على بعض الرهبان أن يشغلوا أوقاتهم بخدمة المناصب الكنسية وهى خدمة الطقوس الدينية Liturgy بينما الآخرون يقومون بالواجبات الأقل أهمية وعلى سبيل المثال أيضاً فإن اسحق سباستكراتور Sebastocrator Isaac فى ١١٥٢م مقدم دير كوزموسترا Kosmostoir الذى أسسه بالقرب من Aenos فقد خصص خمسين راهباً لخدمة الطقوس الدينية وأربعة وعشرين للأعمال اليدوية الأخرى. ولو أخذنا نموذج من دير القديس ديمترى نجد أن مقدم الدير كان يوجد لديه ست وثلاثون راهباً جعل خمسة عشر منهم يفرغون أنفسهم لخدمة الطقوس الدينية والواحد والعشرين الآخرين لبقية الأعمال. الشئ الذى يدل دلالة واضحة على ترجيح كفة الدين على الدنيا فى تلك الأديرة ولو تفحصنا في الموضوع لوجدنا أن أولئك الذين

---

(1) Peter Charanis, the Monki, P. 80.

والقانون الذى أشار اليه هو:

- Corpus Juris Civilis, 3 Novellae,. Ed R.Schoell (Berlin. 1854); 669 (Nov. CXXXIII, 2).

(2) The Oxford Dictionary of Byzantium. Vol. 2. P.1394.

يفرغون لخدمة الطقوس الدينية هم الذين يجيدون القراءة أما الآخرون فهم أميون تماماً. وتأكيداً على هذا القول فإنه وجدت وثيقة كتبت في سنة ١١٦٤ وعليها توقيع ثمان وعشرون راهباً. ومن بين الثمانية والعشرين سبعة عشر كتبوا أسماءهم أما البقية الباقية فقد وقعوا عن طريق الرمز Symbol ومن بين الذين لم يكتبوا أسماءهم اثنين حراس البساتين واحد كان بستانيا وآخر كان حارسا للبوابة والنقطة الرئيسية هى مدى معرفة الرهبان للقراءة. ومعرفة القراءة لا تعنى بالضرورة أن يكون الشخص متعلماً أو مثقفاً. فالراهب البيزنطي بصفة عامة كان غير متعلم هذا مع بعض الاستثناءات[١] ، لذلك لم نجد أى من الأديرة البيزنطية أشير إليه كمركز رئيسى للتعليم.

والاستثناءات هى وجود بعض الشخصيات الأرستقراطية في الأديرة وخصوصاً فى الفترات المتقدمة من عمر الأديرة فقد أشرنا إلى أن البعض من أصحاب الرتب الاجتماعية العالية قد أجبروا على تبنى حياة الرهبنة وهناك البعض أختارها بملء إرادته. وهؤلاء مما لا شك فيه ، كانوا من المتعلمين. لكنهم كانوا أقلية ولم يعرف أن أحدا منهم حاول تأسيس مدرسة ديريه هذا وان اشتهر بعض الديريين أمثال حنا الدمشقى بعلمهم وبأصلهم النبيل كذلك تيودور الاستديون The odore the studiot وثيوفانيس ، كاتب الحوليات ، كانا من أسر نبيلة وهناك ميكائيل اليانوس Michael Maleinas عم نقفور فوكاس أصله من عائلة أرستقراطية وأخيراً اثناسيوس Athanasius صاحب اللا فرا على جبل آتوس كان من عائلة غنية من بونتس Pontus وان الامبراطور نقفور فوكاس ، صديقه ومساعده في تاسير اللافرا كان متوقعاً أن ينضم إلى مجموعة الرهبان وأخيراً لدينا نموذج سيمون اللاهوتي الجديد Symean the New theologians كان عمه شخصية مرموقة في البلاط الإمبراطورى وكان يتمنى أن يضع ابن شقيقه فى منصب إدارى ولكن تفكير الصغير اتجه اتجاهاً آخر[٢].

وخرج من الأديرة كبار رجال الكنيسة الذين عينوا من الرهبان حيث من كان يشغل تلك الوظائف يجب. أن يكون من العزاب ، كذلك برز عدد من الرهبان فى دراسة اللاهوت ومن

---

(1) Peter Charanis, The Monk. P. 81-82.

(2) Peter Charanis, The Monk. P. 77.

- Warran T., Readgold, The Chronological Accuracy of the Cronicle of Symeer the Logothet for the years 812-846,in: Damparton Oaks Papers 33. P (1979). أيضا:

أشهرهم الراهب لينونتيوس من القرن السادس الميلادى (٥١٩-٥٣٨م) الذى عاش فى اللافرا قرب القدس وكذلك يوحنا الدمشقى الذى كان راهبا فى دير سابا حوالى ٧٣٢ - ٧٤٩م.

ولكن بقيت وظيفتهم الأولى العبادة وكان شغفهم بحياة التأمل أكثر من شغفهم بخدمة الناس لقد احتقروا الدنيا وعاشوا حياة من التأمل مثل الفلاسفة الحقيقيين ومنهم من ادعى أنه لديهم القدرة على التنبؤ ويورد حنا أسقف افيسوس في تاريخه إلى أنه قد أتوا ببعض النساك من مصر إلى العاصمة وهؤلاء مشهورون بمعرفتهم للأسرار وبمعرفتهم للمستقبل وأعطى مثالا بأنهم يستطيعون التنبؤ بعدد السنوات التى سيعيشها الملك أو الملكة ومن سيكون خليفته وأشياء أخرى من هذا القبيل(١).

وتمتع الراهب بعدد من المواصفات جعلته شخصية مؤثرة في المجتمع البيزنطى وهى البساطة والعطف والحب بالإضافة على جانب أمور أخرى سرية غامضة ، لا يدركها العقل " ونظراً لأسلوب معيشته أصبح قريباً من الله ، يحادثه بلمس ملابسه ، كما امتص قوة خاصة من تلك القوى التى يملكها الله والتي هو وحده ، الله جل جلاله ، الذي يستطيع نقلها ، لذلك فإن صلاة الراهب لها تأثيرها أكثر من صلاة الأشخاص العاديين وتأثير وقيمة تلك الصلاة كانت السبب الرئيسى وراء قيام الناس العاديين ببناء أديرة جديدة أو تقديم هبات للأديرة المبنية من قبل. وكان هناك تقليد أن يقوم الرهبان والراهبات بالصلاة لمؤسس الدير وأن يصلوا على روحه عند وفاته. وتلك الصلاة تعتمد على أسلوب حياة الراهب فإذا كانت حياته لا يوجد بها أى انحراف عن أوامر الله وكان محافظاً محافظة شديدة فإن هذه الأمور تجعله أكثر قرباً من الله(٢).

---

(1) John Bishop of Ephesus, Ec Iestical History, Medieval Miracles in: By Paper Smith (Oxford, 1860) 35. P. 70.

(2) John Moorhead, Thoughts on some Early Medieval Miracles in: By Zartine Papers, Australia National University Canbera. (1981) P. 1-9.

ـ انظر أيضا: ملاك لوقا ، القديس الأنبا أنطونيوس ، مكتبة المحبة. بدون تاريخ. ص٤٩ ، ٥٨.

أيضاً: ملاك لوقا ، الأنبا صموئيل المعترف ، مكتبة المحبة. بدون تاريخ. ص ٥٢. (إقامة راهب من الموت)

روجت الأساطير أن الرهبان لديهم القدرة على شفاء المرضى وحتى إعادة الحياة إلى الموتى وطرد الأرواح الشريرة.[١]

ويضاف إلى الخدمات التى قدمها الرهبان إلى عامة الشعب هى الخدمات الطبية والإشارات إلى المعجزات التي قام بها الرهبان هى إشارة صريحة إلى قيامهم بمهمة العلاج وإذا كانوا يشفون المرضى ويصنعون المعجزات عن طريق منح البركات فهذا لا يعنى أن الرهبان أهملوا العلاج بالأدوية حيث كان الدير يعتبر المكان الوحيد بالنسبة للفلاحين الذين يجدون فيه الدواء والرعاية الصحية. ومثال على ذلك دير Pantocrator الذى شيده الإمبراطور يوحنا كومنين الثانى (فى القرن الثانى عشر فى ١١٣٦م). John II Comnenus الذى كان مسؤلاً عن مستشفى تحتوى على خمسين سريراً وقسم إلى عدد من الأقسام لمختلف الأمراض للرجال والنساء ، كما زود المستشفى بفريق طبى مناسب. كذلك أسس اسحق كومنين ، شقيق يوحنا الثانى كومنين ، دير يحتوى على مستشفى تقدر سعته بست وثلاثين سريراً. ولم يخصص للمرضى من أهل المنطقة فقط بل خصص للرهبان والمسافرين وسكان القرى المجاورة. كما كان يخصص يوما الجمعة والأربعاء للنساء فقط.

إن حياة Typica والقديسين رسمت الخدمات الاجتماعية الواسعة التي كانت تقدمها الأديرة فبالإضافة إلى الرعاية الصحية كان هناك مضيفة للمسافرين ودار للأيتام كما أشرنا ودار للمسنين هذا بالإضافة إلى كنيسة صغيرة ومقبرة ومدافن للفقراء المعدمين. ولم تقدم هذه الخدمة إلا بواسطة الحماة الأثرياء الذين أمدوا الأديرة بالحماية والدعم المالى.[٢] إن الدعم المالى جعل الرهبان قادرين على توزيع المال والطعام والملابس للمحتاجين بشكل منتظم.

لقد لعبت الأديرة دور السجن أو المنفى للأباطرة والبطاركة والثائرين الذين يفشلون في انقلاباتهم والمختلين عقلياً والزوجات المطلقات .... الخ هذه أهم الجوانب الإيجابية للخدمات التى قدمتها الأديرة للمجتمع ولكن لا يعنى هذا عدم وجود مساوئ للأديرة وقد أشرنا إلى أهم

---

(1) Peter Charanis, The Monk, P. 77.

(2) Nikolas Oikonomides, Patronage in Palaiolegan mt. Athos, in: Mount Athos and Byzantine Monasti cism. P. 99--111.

نقطة فيها وهى التخلى عن الحياة العسكرية والدفاع عن الوطن. وقد أورد كارانيز تقريراً مفـاده أنه فى نهاية القرن السابع كان حوالي ثلث الأراضى البيزنطية فى حوزة الكنيسة والأديـرة وأن الحركة اللاأيقونية حدت من نمو الأديرة ولكن بمجرد انتهاء تلك الحركـة فـإن الأديـرة نمـت وبأعداد كبيرة أكبر من ذى قبل وتضاعفت ممتلكاتها وتلك الممتلكات لا يمكـن إحصاؤهـا وإن الذين عانوا من ذلك الفلاحـين بالدرجة الأولى والدولة بالدرجة الثانية. وهناك عدد من البرديات من القرن السادس الميلادي تنهض دليلاً على شراء الأديرة للأرض مثال على ذلك البزديه رقـم ١٦٨٦ بتاريخ ٧ نوفمبر ٥٦٥م. وهى وثيقة بيع خطها بيده Dioccorus لقطعة أرض لا مـاء فيها مساحتها ثلاثة آرورا إلى دير Zminos زمنوس. كذلك البردية رقم ١٦٩٦ بتـاريخ غـير محدد يشـير إلى النصف الأول من القرن السادس وهى عبارة عن إيجار أرض إلى دير.[١]

ومن أهم الملاحظات حول قصور الأديرة الشرقية كانت النقاط التالية:

أولاً: عدم المساهمة فى نشر الديانة المسيحية وبالتالى عدم نشر الحضـارة الرومانيـة والتـى تبنتها الديانة المسيحية وخصوصاً امتزاجها مع الثقافة الكلاسيكية القديمـة والتـى سـميت بالأعمال التبشيرية.

ثانياً: لم تشتهر الأديرة في الشرق كما كان الأمر في الغرب بأنها مراكز تعليـم[٢] أو بكلمـات أخرى لم تشتهر بالنشاط الفكرى والتعليمى.

من ناحية النشاط التعليمى كان وما يزال هناك قصور من ناحية الأديـرة الشـرقية فـى الإسهامات العلمية ولكن من ناحية النشاط الفكرى وجد بشكل أو بآخر ولدينا عدد مـن الأمثلـة على النشاط الفكرى للرهبان الشرقيين أمثال تيودور الاستوديون الذى قال:

---

(1) Catalogue of Greekpapyri in the British Museum, Catalogue with text
- Peter Charanis, The Monastic Properties and the State in the By Zantine Empire, Dumparton Oaks papers .42. (1988) P. 56–63.

(٢) لمعرفة مزيد من التفاصيل عن مدارس الأديرة فى الغرب. أنظر:

على الغمراوى: مدخل إلى دراسة التاريخ الأوروبى الوسيط. ط ٢ ، مكتبة سعيد رأفـت. القـاهرة ١٩٥٧. ص ١١١. وما يليها.

التعليم ورق شجر إذا ما قورنت ثماره بالحياة الجيـــدة وان الشـــجرة التـــى لا تحمـــل الأوراق يجب أن تقطع ثم تحرق وأهم نتيجة هى الثمار التى تكون مع الأوراق.[١]

وبما أن الحياة الرهبانية فى الإمبراطورية الشرقية قد انقسمت إلى قسمين تنسكى وشـــركة وان الحياة التنسكية وضعت في منزلة أعلى من منزلة الشركة ، كما أشرنا إلى ذلك ، فإننا نجـــد بأن الرهبان النساك اهتموا بالتأمل والأعمال الخارقة أو المعجزات. وان كان لدينا مثـــال علـــى وجود إنتاج فكري لاحد المتوحدين وهو القديس مارا اســـحق الســـريانى المولـــود عـــام ٥٥٦م والذى انخرط فى الرهبـــنة فى دير متى وترك الدير وذهب إلى البريه وعاش متوحداً وهناك قام بالكتابة ولكن كتاباته كانت موجهة إلى الرهبان فقد ألف أربعة كتب خاصـــة بـــالتعليم الرهبـــانى وكتب سبعة مجلدات فى التبرير الروحى والأسرار الإلهية. وعدة كتب عن سيرة النساك وكتـــب في السفر والحوار. وترجمت بعض أعماله إلى اللغات العربية واليونانية واللاتينيـــة والإيطاليـــة والإسبانية والفرنسية والروسية. ويبدوا أن كتاباته كانت باللغة الســـريانية لغتـــه الام[٢] ، كذلـــك جلاسيوس الناسك Gelasius الذى قضى أوقاته في نسخ الكتب المقدسة وتسليمها إلى نساك ديره ليتعلموا منها. وكان أثناء عمله مقيما فى بريه شهيت.

إن فكرة التنسك والوحدة في البراري والمعيشة على أعمدة تلقى بصيصها مـــن الضـــوء على افتقار الرهبنة الشرقية إلى الإنتاج الفكرى الغزير. وان كان هذا لا يعني افتقارهـــا افتقـــاراً شديداً إلى ذلك حيث انقسمت الرهبانية إلى تنسكية وإلى الشراكة أو شركة فرهبان الشركة قدمـــوا الكثير من الدراسات اللاهوتية والفلسفية وحتى الطبية وبرز منهم من شغل مناصب فى الكنيســـة الشرقية ومن لعب دوراً حتى في الحياة السياسية وعلى رأسهم باسيل أســـقف ســـلوقيه (٤٤٠-٤٦٨م.) ولديه مؤلفات تشتمل على ميـــامر وكتابـــات عقائديـــة ورســـائل. والميـــامر تســـمى " الاكساميرون " وهى تفسر أيام الخليقة وهذا الإنتاج ترجمه إلى اللغة العربية فى القرن الحـــادى عشر أبو الفتح عبد الله بن الفضل الأنطاكى. كذلك قوانين باسيلوس والقوانين المختصـــرة وقـــد

---

(1) Byzantine. Monasticism, P. 177.

(٢) ملاك لوقا: مار اسحق السريانى. مكتبة المحبة. بدون تاريخ. ص ١٧-١٨ ومن ٢٦-٢٧.

ترجمها إلى العربية الراهب الباسيلى الحلبى تاوفيلس فارس المتوفى سنة ١٧٤٥م[١]. ويوحنا الدمشقى الذى ألف فى اللاهوت واعتبر منظماً للتشريعات المسيحية الشرقية. وفى مقدمة مؤلفاته الموسوعة اللاهوتية " ينبوع المعرفة " والتى ألفها في سنة ٧٤٢م. وتنقسم إلى ثلاثة أقسام.

الأول: علم الفلسفة والمنطق.

ثانياً : تاريخ الهرطقات.

ثالثاً : كتاب الايمان الأرثوذكى [٢].

كذلك ميكائيل سنيكلو Michiel Synkello (٧٦١-٨٤٧م) الذى كان راهباً وقديساً ونحوياً عالج مشكلة الكلمة أكثر من معالجته للعلاقة بين الكلمات ويعتبر أيضاً كاتباً للطقوس والشعائر الدينية[٣]. وقد وجد من يكتب كتابات علميه بالاضافة إلى الدراسات الدينية إلا قبل الراهب ميلتيوس Meletios the Monk وهو طبيب وكاتب في العلوم الطبية تاريخه غير معروف ولكنه ينسب إلى القرن التاسع وكان من رهبان دير الثالوث المقدس في منطقة Tibesioplois فى منطقة تيم الأبسيق Opsikion وأهميته تعود إلى أنه حفظ في كتاباته بعض المقاطع المفقودة للأعمال الطبية القديمة[٤]. كما عثرنا على نموذج من الرهبان الذين اهتموا بالحركة السياسية غير الراهب Theophanes[٥] وهو الراهب الشماسى جاورجيوس والذى عاش في دير الأنبا مقاريوس الكبير بشهيت وقد كتب تراجم الباباوات وصور الأحداث السياسية التى اجتازتها مصر وصور شخصيات الحكام المدنيين الذين تعاقبوا على حكمها وقد تضمن

---

(١) القمص تادرس يعقوب ملطى: قاموس آباء الكنيسة وقديسيها. ح٢. ص ٤٣.

ايضاً: ملاك لوقا: القديس باسيلوس الكبير، مكتبة المحبة ، بدون تاريخ.

(2) G. Ostrogorsky, History of the Byzantine State, P. 172-174

ــ أيضا: ملاك لوقا ، القديس يوحنا الدمشقى مكتبة المحبة ، بدون تاريخ. ص ٢٩ – ٣٧.

(3) The Life of Michael the Synkello transl. By Unningham, Belfast, (1991)

ــ أيضا: - The Oxford Dictionary of Byzantine vol. 2. P. 1369.

(4) The Oxford Dictionary of Byzantine, Vol.2. P. 1333 .

(5) Theophanes, Chronicle of VIII.

اجتازتها مصر وصور شخصيات الحكام المدنيين الذين تعاقبوا على حكمها وقد تضمن كتابه أحداث أربعة قرون من القرن الرابع حتى القرن الثامن(١).

وهذا هو واقع الأديرة الشرقية أو الرهبانية الشرقية والرهبان الشرقيين الذين حققوا ما هو أهم من الخدمات الاجتماعية وهو مكانة الأديرة في الحياة الروحية وهو الشئ الذي أعطى الراهب وزنه فقد مارس الراهب فى ذلك المجتمع وظيفة القائد الروحى ووظيفة المستشار والناصح ويستدل على ذلك من مراسلات تيودور الاستودن التي وضحت أنه كان مستشاراً خارج نطاق الدير. وينطبق ذلك القول على يوحنا مورابوس John Mauropous الذى كان راهباً وأسقفاً فى Euchaita فى أسيا الصغرى ، كما كان سيمون اللاهوتى الجديد Symean the Tleologian في بداية القرن الحادى عشر أباً روحياً لعدد من العوائل النبيلة في القسطنطينية. وقد قاموا بزيارته عندما كان في المنفى مقابل البسفور(٢).

هذا بالإضافة إلى عدد لا يحصى من الحالات الشخصية. وعلى كل حال فقد مارس الرهبان ذلك النفوذ وعلى نطاق واسع وأن هذا الدور لا يمكن أن يقدر بثمن أو لنقل هذه المكانة التي احتلها الرهبان في المجتمع الرومانى الشرقى.

---

(١) القمص تادرس يعقوب ملطى: قاموس آباء الكنيسة وقديسيها. حرف ج. ص١٤-١٥.

(2) Byzantine Monasticism. P. 182.